تاريخ ما بين السطور
حلم فو سان في العرش

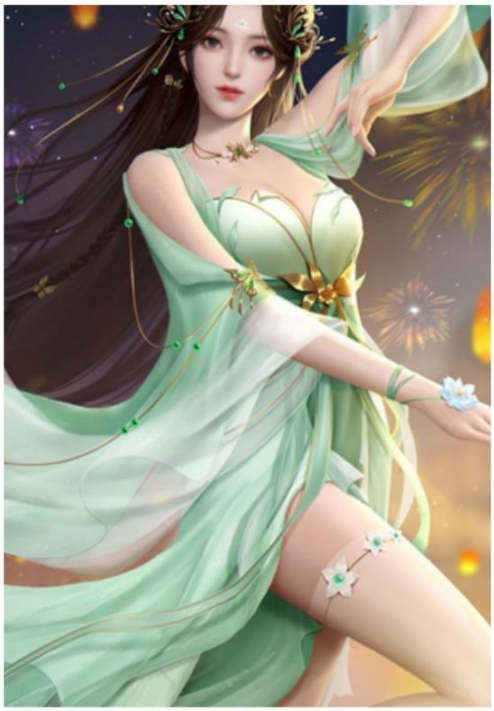

رمضان مصطفى سليمان

ظلّ الشمس:
حكاية إمبراطوريةٍ وامرأةٍ لا تخشى القدر

كانت الصين في أوائل القرن السابع بعد الميلاد سجادةً من دمٍ ونارٍ ، رقعة تُقسَّم بسيفٍ وبطشٍ بين زعماءٍ شبابٍ يطلبون شرف الانتساب إلى التاريخ بأي ثمن.

في صباحٍ ثانٍ بعد الحريق ، جاء صوت الطرق على أبواب القصر مسموعًا أكثر من هدير الريح:

صوت محاربٍ لم يحفل له أحدٌ من قبل. طُرق الباب ، وفتح الإمبراطورُ الباب عيناه تفيضان ذلاً ، وحوله النسوةُ والأبناء ، وجوهٌ شاحبةٌ تصغي إلى قرارِ مصيرٍ سُيكتب باسم الشجاعة أو الوحشية.

راح الإمبراطورُ يركعُ ، يخفض جبينه حتى يكاد يلامس حجر العتبة ، ويهمس بصوتٍ يكاد يقبض على أنفاسه :

يا ابنَ الشمسِ الجديد ، يا محبوبَ بوذا... قد دانت لك الصين. افعل بي ما شئت ، لكن ارحمْ أهلي، ارحمهم.

ابتسم الشابُ المنتصر ابتسامةً بلا رحمة ، وفتحت عيناه على العالم كمن يقرأ ديوانَ موتٍ سابقٍ :

ماذا فعلتَ أنتَ بمن سبقك؟ سأل بصوتٍ يقطرُ تهمةً حين حرقتَ العاصمة وقتلتَ جيشَه، وخرج إليك مثلك الآن؟ ماذا فعلتَ؟

نظرَ الإمبراطورُ إلى أرض القصر، إلى البقعِ التي ظلَّت عليها الدماء، كما لو أن التاريخ يلاحقه بعينٍ لا تنام :

قتلته... وقتلتُ أبنائه. وبقيتُ على زوجته الشابة لأتزوجها، فولِدتُ هؤلاء الأبناء. هذا ما كان.

ارتجفَت يدُ الشاب ، ولم يكن ارتجافًا من الخوف بل من قرارٍ أخذ في التبلور :

أما أنا، فلن يبقى أحد من أهلك أو ذريتك . إن راقت لي امرأةٌ من نسائك سأشوه وجهها وأبتر أنفها وأدلُ من أذنيها حتى لا تعيدها العينُ إلى ذاكرتي. اقتلوهم كلَّهم.

كانت كلماتُه ختامًا على عهدٍ ما ، وبدايةً على إمبراطوريةٍ قادمة ، إمبراطوريةِ أتايت سونج — رجلُ وحشٍ، وبانيُ سدٍ متينٍ أمام الغزاة اليابانيين لاحقًا، لكنه قبل كل ذلك ، كان طوفانًا سحق ما اعترضه . وبعد أن استقرَّ عرشُه ، ظهرَ فوق التلال وجهٌ آخر وجه امرأةٍ قويةٍ بالقدر ذاته : فو سان تسرتين.

لو لم تخط القدرُ مسارها ، كانت ستبقى فلاحَةً في قريةٍ جنوبيةٍ تَشكو الأرضَ وتُسرُّ بالحبِّ البسيط. لكن الحلمَ الكبير متمردٌ على بسطاء الأمور . كانت فو سان ، حين بلغت الثالثة عشر ، نادرة الجمال ، مكتفيةٍ بالأنوثة الطاغية حتى في صغرها . والشبانُ في القرية ينجذبون إليها كما تنجذبُ الطيورُ إلى حباتِ القمح المتناثرة . كانت تقول لأمها بصراحةٍ قاسيةٍ ومكشوفة :

كلهم فقراء ، ولا أريد أن أشقى كما شقيتِ يا أمي.

ضحكت الأمُ بصوتٍ فيه نميمةُ الحزنِ والعطفِ :

يا بنتي ، الشبابُ والجمال نعمٌ ، لكنه يذوي . اغتنمي فرصتك . اقتنصي واحدًا منهم... هوراسي ابن صاحب الضيعة هناك . أراه مولعًا بكِ.

أجابت فو سان بصوتٍ لا يتناسبُ مع سنِّها :

هو يريد المتعة بلا مقابلٍ باسم الحب . أما أنا فأريد ما أستقر بهّ . أريد أن أحصد المستقبل قبل أن يَأخذني العوز . أريد أن أملك.

كانت هذه الجملةُ بدايةَ فكرةٍ تقودها إلى ما لا تعرفه : السلطة . حين قالتها ، لم تكن تقرأ التاريخ ؛ كانت تكتبُه بمخيلةٍ تسبقها سنوات.

في الحقول ، بين فجرٍ محروقٍ ورائحةِ قشٍّ تفوح ، كانت لوهج الطموح أعينٌ أخرى . إحدى ليالي الصيف ، وبينما كان نور القمر يُمسكُ بمقودة النهر ، دارَ حوارٌ داخلي في صدر فو سان كأنه حوارٌ بين أمِّها وبين نفسها :

لمَ هذا الجشع ؟ همست الأم في رأسها ألا تخشى أن تكوني وحيدةً في أعلى القمم؟

أجابت فو سان بصوتٍ داخليٍ صارخ :

الوحدةُ أفضلُ من ذل الفقر . إن تحتم عليَّ أن أبيعَ جسدي ، فإني سأشتري به تاجًا يُبقي عليّ رأسيَ .

هذا النبرةُ الشجاعةُ المختبئةُ في الخوف كانت تصقلها الأيام. الحبُّ عندها كان مجردُ وسيلةٍ ، والوسائلُ عندها ما تُقاس بالنتيجة . فالتاريخُ ، كما رأت ، لا يمنح أحدًا من لا يطلبه بإلحاح.

بعد سنواتٍ من البداية ، وقفت فو سان على عتبةِ مصيرٍ أكبر: في بلاط الإمبراطور الجديد ، حيث الدماءُ القديمةُ لم تجف بعد ، رأتها العيونُ السياسيةُ كخطرٍ وكمصدرِ قوةٍ . كانت ذكيةً تفوق لعبتها ؛ تعلمت قراءةَ النفوسِ كما يقرأُ الفلاحُ وفرةَ المطر . أمواجُ الطموحِ أسمتْها على نحوٍ ما ؛ وطالما تُنْعِمُ الأقدارُ على امرأةٍ أن تجمع بين الجمال والدهاء ، تصبح هي الريح التي تُطيحُ بالأشجار.

في أول لقاءٍ بينها وبين الامبراطور أتايت ، كانت غادرةً بالحذر ، وسلمت له ابتسامةً كأنها وعدٌ . ورغم أن حكاية الإمبراطور مع القوة كانت قائمةً على الخوف والبطش ، إلا أن في عين فو سان شيئًا آخر : كراهيةُ أن تكون تابعًا . كان في صدرها قرارٌ أن تجعل من التبعية مقدمةً للحكم.

في الليل ، حين يسدل القصر ستاره، كانت فتوى داخليَّة تُصدِح:

إن أردتِ أن تحكمي ، فعليك أن تعتقلي الخوف . الخوفُ سجّانٌ. امسحيه كالماء.

هنا تبدأ لعبةٌ من الحيل : تظاهُرٌ بالضعف ، ثم نوبةُ قوةٍ تأتي كما ظلال الليل . فو سان لم تكن تُنكر بلاهةَ العاشقين أو طمعِ الحاكم ، لكنها كانت تلتقطُ أخطاءهم كخيوطٍ لنسجِ شبكةٍ أكبر.

في لحظةٍ لم يتوقعها أحد، صعدت فو سان من طينا إلى خشب العرش. لم يكن ذلك صعودًا جميلًا ، بل كان خشنًا كالحديدة التي تُنقش على الحجر. ورغم أنها امرأةٌ وكان ذلك في البلاط بمثابة قنبلةٍ مُعلنةٍ ضد التقاليد فقد حكمت بذكاءٍ قاسٍ ، وبحبسٍ لصوتِ الحنينِ في صدرها ، حتى صار الخبزُ بالنسبة لها سلعةً تُوزَّعُ بحساب.

لكن لم تخلُ أيامُ حكمها من صدعٍ داخلي. كان في روحها تضاربٌ بين حنينٍ طفوليّ لرائحةِ الخبزِ في بيت أمها وبين رغبةٍ جامحةٍ

في تحويل الصين إلى امبراطوريةٍ لا تُقهر . في الليالي الطويلة ، جلست وحدها في غرفةٍ عاليةٍ ، وتذكرت ضحكاتٍ مهجورةٍ ، وصرختْ :

يا أمّاه ، هل ترين ما فعلتُ ؟ هل ترين أن الحلم الذي زرعته فيّ صدري قد صار قدري ؟ أم أنه استعبادٌ لروحي ؟ !.

الذاتُ هنا تتقهقر وتتقدم ؛ هي معركةُ ملكةٍ ضد نفسها . وفي داخلها ، تمردت أنثىً صغيرةٌ لا تريد أن تدفع ثمنًا لهذا الاعتلاء.

انت تتخيلُ وجهَ هوراسي مرةً يتلوى في بقايا ذكرى ، تُحدثه بصوتٍ خفيفٍ :

إنني أخذتُ ما أردت . لا تنتحب ، فالموتَ يا هوراسي، ليس دائمًا أكثرُ قسوةً من الفراق.

مع مرور السنين ، تذكّر الناسُ فو سان كملكةٍ جميلةٍ بلا ندم ، أو كأمٍّ أودت بجسدِ إمبراطوريةٍ لتلدَ أمجادًا دفعت ثمنها فقراءُ الأرض. أما هي ، فقد ظلّت في نوباتِها ، نصفُ بشرٍ يفكّر في الخلود ، ونصفٌ متمردٌ على العشق والحنان.

في إحدى جلساتِها العاجلة ، جاء وزيرٌ قديمٌ يحمل في عينيه قلقًا يبدو وكأنه مرسومٌ بعصا مؤمنة :

مولاتي ، إن الشعبَ يئنّ. الضرائبُ تَغلّه، والجيشُ يحتاج طعامًا . إنّ قوتَ الحاكمُ ليست في الخوف وحده ، بل في قلوب الناسِ أيضاً.

نظرتْ إليه فو سان بضيقٍ قصيرٍ ، ثم قالتْ بصوتٍ لا يرتعش:

القلوبُ تُشترى أم تُقهر ؟ لا أؤمنُ بالقلوب الصغيرة . إما أن تكون قويًا، أو تكون خاطئًا.

في ذلك الرد، بدا الريحُ واضحًا : المرأةُ هذه اختارت الطريقَ الذي اختاره المنتصرُ الوحشيُّ ذاته ، لكن بأسلوبٍ آخر : لم تَجزع ، بل جعلتِ العقلَ سلاحًا . وفي اللحظة التي ظنَّ البعض أنها تفقد إنسانيتها ، كان آخرون يرون فيها حزمةَ من عزيمةٍ أنقذت الصينَ من فراغٍ قد يبتلعها.

النهاية ليست خاتمةً واضحةً . التاريخُ لا يُحبُّ القوافيَ المفهومة . فو سان بقت أسطورةً في ذاكرةِ أجيالٍ قادمة متضاربة ؛ بالنسبةِ للبعض ، مجرمةٌ اغتالت الحنانَ لصالحِ سلطتها ؛ وبالنسبةِ آخرين ، بطلَةٌ أعادت للحياةِ معنىً استقرارًا لمئاتِ السنين. أما هي ، فربما بقي شيءٌ في

صدرها يئنُّ ليلاً: رائحةُ خبزٍ قديمٍ، ضحكةُ أمٍّ، واسمُ حبيبٍ قد أخذته الريحُ.

وفي آخر سطرٍ لملحمةِ هذا الزمن ، تبقى الحقيقةُ أن الإمبراطورَ الوحشيَّ الذي قتلَ من سبقه وأسسَ أمةً ، وأن المرأةَ الجميلة التي صعدت بعده كلاهما وجهان لعملةٍ واحدة : التاريخ . هو رغبةٌ في البقاء . وفي داخلهما ، غرائزٌ بشرية ، مخبوءةٌ وراء أقنعةٍ من حديد . وبينهما ، يقفُ الفلاحُ وأمُّه، والحبُّ المهجور، والقريةُ الصغيرة التي صارت ذكرى في قصرٍ كبيرٍ لا يرحم.

هكذا تظل الصينُ سجلاً من جراحٍ وانتصاراتٍ، يقلبه الزمان كما تقلب الأنهارُ حاجاتها: لا يرحمُ الجمالَ، ولا يتركُ الحكايةَ بلا اسم.

فو سان وظلال قصر الحظايا

كان الصباح ينساب على ضيعة هُراسي مثل شريط من الذهب فوق حقول الأرز . الطيور تحلق في سماء ضبابية ، وأبواق العمّال تتردد مع نسيم الخريف ، والأنهار الصغرى تتلألأ كحكايات قديمة. هناك ، وسط حقلٍ تتشابك فيه عروق القمح وخيوط الشمس، كان والدها ووجي شان ينحني فوق التراب، يزرع الحبوب بيدٍ متعبة وأخرى متوجسة من المستقبل.

وقفت فو سان عند طرف الحقل. الفتاة التي لم تتجاوز السابعة عشرة كانت تحمل في عينيها مزيجًا من الحلم والعناد ، وفي قلبها رغبة جموح في مغادرة عالم الطين والعرق والقيود. لم تُلقِ نظرة طويلة على أبيها ، فثمة شيء كان يجذبها إلى مكان آخر ، إلى موعدٍ غامضٍ عند شاطئ نهر ستيشي حيث اعتادت أن تلتقي فتاها هوراسي — الحلم الصغير الذي تمنّت أن يكون رجلها وزوجها ومالك قلبها.

لكن حين وصلت إلى الشاطئ لم تجد هوراسي. النهر كان ساكنًا كمرآة ، لا انعكاس فيه إلا لغيابها المفاجئ عن عالم الطفولة. ارتبكت ، وشعرت بظل الخوف يمرّ في صدرها ، قبل أن تقطع ذلك السكون أصوات حوافر الخيل ورنين السروج وصرير العجلات. التفتت ، فإذا بموكبٍ فخم يقترب. الجنود والضباط بأزياء مزركشة كأنها لوحات حيّة ، والخيول بفراءٍ لامع وسروج من المخمل المطرّز بخيوط الذهب ، وعددها مرصّع بالفضة التي تلتمع تحت الشمس.

ارتبكت الفتاة الصغيرة ، واقتربت من أحد الفلاحين الواقفين مذهولين أمام المشهد . كان الفلاح رجلًا أشيب بملامح أكلتها الشمس ، لكنه لم يُخفِ انبهاره. قالت بصوتٍ متردّد:

من هؤلاء يا سيدي ؟ أ يكون بينهم الإمبراطور ؟

ضحك الرجل حتى انحنت أكتافه ، و قال:

ما أغباكِ أيتها الفلاحة الصغيرة! الإمبراطور في قصره البعيد بالعاصمة، بيننا وبينه مسيرة أيام وأيام.

تقدمت خطوةً وسألته ثانية:

من هؤلاء إذن؟

نظر إليها مليًا وقال بصوتٍ منخفض :

لو رآك رئيس هؤلاء الرجال لضمّك على الفور إلى قافلة بنات الحظايا. أنت صغيرة وجميلة ، وهم لا يختارون إلا الصغيرات الجميلات.

شعرت فو سان بفضولٍ ممزوج بالخطر. قالت بإصرار :

وما تعني بقافلة بنات الحظايا ؟

تنهّد الرجل وأجاب بنبرةٍ حادة :

لا تسألي عما لا يأتيك من ورائه إلا الشر ، كل الشر.

رفعت رأسها بعناد طفولي وقالت:

إذا لم تخبرني فسأسأل رئيس هؤلاء الرجال بنفسي.

لم تكن فو سان فتاةً ساذجة؛ كانت جسورةً شديدة الثقة بقدرتها على الخروج من كل مأزقٍ بالدهاء والخلابة. وبحزم شقّت طريقها نحو رئيس الموكب. كان رجلاً في الخمسين، سمينًا مترهل الجسد ، عيناه ضيقتان لكنهما تلمعان ببريقٍ مبهم. وقفت أمامه وقالت دون تردد :

سيدي، يقولون إنك رئيس قافلة بنات الحظايا، ماذا يعنون بهذا؟

تأملها الرجل طويلاً قبل أن يسألها بصوتٍ متلعثم فيه نبرة صياد :

ما اسمكِ أيتها الصغيرة الجميلة؟

فو سان ، ابنة الفلاح ووجي شان ، أبي يعمل في الضيعة المجاورة للنهر.

ألكِ أخوات في مثل سنك؟

أنا ابنة ووجي الوحيدة.

هل أنتِ متزوجة؟ أم عذراء؟

تراجعت خطوة للخلف وقد احمرّ وجهها :

عذراء يا سيدي، لكن ما سؤالك هذا؟ أنا التي سألتك عن هذه القافلة ولم تجبني.

ابتسم الرجل ابتسامةً غامضة وقال:

سيأتيك جوابي يا جميلة بأسرع مما تتوقعين.

لم تفهم مغزى كلامه ، لكن قلبها انقبض. مع ذلك قضت بقية ذلك اليوم مع صديقها هوراسي تحاول أن تلهو كي تنسى ذلك الموكب الغامض. إلا أن كلمات الرجل بقيت تدق في رأسها كجرسٍ ثقيل.

وعند الغروب عادت إلى كوخ أسرتها البسيط. كان بيتهم عند أطراف الحقل، خشبيًّا وباردًا، لكن فيه دفء الأمومة. جلست عند الباب تغسل ثياب أبيها في إناءٍ كبير بينما أصوات والديها تتصاعد من الداخل.

سمعت أباها يقول في لهجة خافتة مرتبكة:

لا يجب أن يطلع علينا شمس ونحن في هذا الكوخ. اسرعي بجمع كل ما سوف نحتاجه في رحلة طويلة إلى الجنوب.

ردّت الأم بصوتٍ مذهول :

ما هذا الذي تقول يا ووجي شان ؟ هل طردك أصحاب الضيعة ؟ هل سرقت شيئًا واكتشفوا سرقتك ؟

احمرّ وجه الأب وأجاب بحدة :

ما قولك البشع هذا يا امرأة ؟ لم يطردني أحد ، ولم أمد يدي إلى ما لا حق لي فيه.

إذن لماذا بحق بوذا تريد أن تهاجر إلى الجنوب ؟

سكت الرجل لحظة ثم قال بصوتٍ مثقل بالذعر:

إذا بقينا هنا إلى الصباح أخذوا ابنتنا فو سان.

شهقت الأم ، وسقطت الأواني من يدها :

أخذوها منا ؟ ومن ذلك الذي يجسر على أن...

قاطعها زوجها وهو يضغط على كلماته :

الإمبراطور يا امرأة، الإمبراطور. اليوم جاءني الكارجان الإمبراطوري وأمرني أن أعد فو سان ليأخذها إلى بكين.

ومن هذا الكارجان الإمبراطوري ؟

الرجل الموكّل من قبل الإمبراطور يجمع الحظايا للحريم الإمبراطوري . لا أدري أين رأى فو سان وأعجب بجمالها ، لكنه قرر أن يضمها إلى بنات الحظايا.

تقدمت الأم خطوتين وقد تجمدت ملامحها :

تعني أن الإمبراطور يريدها زوجة له ؟

ضحك الأب بسخرية حزينة :

أيتها البلهاء ، الإمبراطور لا يتزوج إلا من أكبر وأثرى الأسر ، لكن في حريمه أكثر من ألف فتاة لمتع جلالته.

ألف فتاة ؟ وماذا يريد من ابنتنا إذا كان في حريمه هذا العدد كله ؟

لقد اعتادوا أن يجمعوا أربعمائة أخريات ليحللن مكان من تموت من الحظايا أو من تفقد عطف الإمبراطور. ابنتنا صغيرة وجميلة وسوف تروق له ، وقد تهبه ولداً فتصبح أم ولد وتغدو من الثريات ولا تغادر بكين أبداً.

هتفت الأم بلهفة :

ووجي شان ، لا تهاجر إلى الجنوب. هذه فرصة ابنتنا الكبرى في بكين !

ضرب الرجل الطاولة بقبضته وقال بصرامة :

إنكِ واهمة يا امرأة . أكثرهن يقضين العمر كله في انتظار نظرة من الإمبراطور ، وما أكثر من ألقين أنفسهن في النهر الأصفر يأساً من عطفه ، حزناً على شبابٍ ضاع في القصر الذي لا يدخله الرجال أبداً. يسمونه قصر بنات الحظايا. لن أسلّم ابنتي لهذا المصير أبداً... لن أسلّم ابنتي لهذا المصير أبداً!

تسمرت فو سان عند الباب، يديها ترتجفان على قطعة الثوب المبللة. شعرت وكأنها في حلم ثقيل ؛ الكلمات التي سمعتها عن قافلة بنات الحظايا لم تعد غامضة بعد الآن. كان قلبها يتأرجح بين الخوف والأمل، بين رغبتها في حياةٍ مختلفة وبين فزعها من أن تصبح واحدة من تلك الفتيات اللواتي يمتن في صمت خلف أسوار القصر.

وفي تلك الليلة ، لم يغمض لها جفن. كان عقلها يموج بأصوات متضاربة : صوت الرجل في الموكب، وصوت أبيها المذعور، وصوت

أمها الحالمة ببكين. بدا لها كل شيء بعيدًا وقريبًا في آنٍ واحد ، وكأنها تقف على حافة نهر ستيشي من جديد ، لا تعرف هل تقفز أم تعود أدراجها.

فو سان وحلم الإمبراطورة

في صباحٍ ضبابيٍّ من مطالع الربيع ، حين كان النهر ينساب هادئاً بين الحقول الخضراء، خرجت أسرة الفلاح **ووجي شان** في رحلتها نحو الجنوب . الأب بوجهه المرهق ، والأم المنحنية تحت ثقل السنين ، والصغيرة **فو سان** ، ابنة الثالثة عشرة ، التي كانت تلمع في عينيها شرارات غامضة من طموحٍ أكبر من قريتها ، بل من الدنيا بأسرها.

ربطوا متاعهم الفقير على ظهر ثورٍ هزيل ، وغادروا قبل بزوغ الشمس. قطعوا يوماً كاملاً ، ثم قضوا الليل في حقلٍ صغير على ضفاف النهر. ومع انبلاج الفجر، دوّى صراخ الأم المرتجف:

ووجي شان! ووجي شان!

هرع إليها الأب مذهولاً :

ما الأمر يا امرأة؟

أجابت وهي تضرب صدرها :

فو سان! لا أجدها! ليست في الحقل، ولا عند النهر!

حاول تهدئتها:

لعلها تستحم في غدير قريب... اذهبي وابحثي عنها ، علينا متابعة الرحلة.

لكنهم بحثوا ، وصاحوا باسمها حتى بحّ صوتهم ، ولم يعثروا لها على أثر. رحلت **فو سان** عن قريتها كما يرحل الطائر عن عشه ، دون أن يعلموا أنها سلكت طريقاً آخر... طريقاً مظللاً بأوهام المجد ، يقود إلى **قصر بنات الحظايا** ، حيث يُختار الجمال الصغير قرابين لأهواء الإمبراطور.

*

حين التحقت **فو سان** بموكب الكاراجان الإمبراطوري، لم يصدق الرجل عينيه. فتاة صغيرة، جميلة، تتقدم دون وجل، وتقول بثقة لا عهد له بها في مثيلات سنّها:

جئت بمحض إرادتي لأدخل قصر بنات الحظايا.

ضحك الكاراجان بصوتٍ أجش ، وقال ساخرًا :

ومن قال إن لك حقًّا في الاختيار ؟ نحن من نأخذ ، لا أنتن من تأتين.

رفعت ذقنها متحدية :

–لم يجبرني أحد. فررت من أبي وأمي... لأني اخترت أن أكون في خدمة جلالة الإمبراطور.

اقترب منها بعينين قاسيتين ، و قال :

هل تعلمين ما فعلنا بالكوخ الذي فررتم منه؟ لقد حرقناه، وكنّا نبحث عنكم لنشنقكم أمام الأهالي. لا أحد يرفض رغبة الإمبراطور.

ابتسمت فو سان، بعنادٍ يشبه السحر :

لكنني لم أرفض... بل سبقتكم بخطوة . جئت طائعة.

تأمله الرجل لحظة طويلة ، ثم هزّ رأسه وقال:

ذكية... خبيثة... بقدر ما أنت صغيرة وجميلة. لكن قولي لي:

لمَ تريدين دخول القصر ، والفلاحون يخفون بناتهم حين يقترب موكبي؟

أجابته بعينين تلمعان بالجرأة :

لأنني الوحيدة التي سيحميها الإمبراطور... والوحيدة التي سيختارها من بين آلاف الحظايا.

قهقه الكاراجان حتى اهتزت الأرض تحت قدميه:

أيتها الطفلة! لم أر مثل حماقتك وتهورك ! لكن من يدري ؟ ربما يخفي الجنون سرّ العظمة.

*

وقبل مغادرة موكبه منطقة **هانان**، سألناه عن هذا التقليد العجيب. قال الكاراجان بجدية:

قد ترونه عجيبًا، لكنه قديم قدم العرش نفسه. كل إمبراطور يجلس على عرش التنين الأصفر، سواء بالوراثة أو بالدم، يأمر بإمداد قصر الحظايا بألف فتاة صغيرة جميلة.

ألف فتاة؟ كلهن صغيرات؟

ابتسم باستخفاف:

يدخلن صغيرات... والسعيدة منهن تحظى بنظرة من الإمبراطور بعد أن تبلغ العشرين. أما الباقيات... فيمتن بالشيخوخة في ظلال القصر دون أن يسمعن كلمة منه.

وكيف تُعدّونهن؟

فور دخولهن ، يلتحقن بالمدرسة. هل تظنيننا نقدّم لجلالته فلاحاتٍ جاهلات قذرات ؟ هناك يتعلمن النظافة ، الموسيقى ، الغناء ، تاريخ الصين ، أساطيرها. بعدها دروس في التذوق الجمالي ، اختيار الثياب ، فنون الزينة. ثم يأتي دور القهرمانات، يدرّبنهن على أسرار أخرى... أجلكم أن أذكرها.

ومن يقدّم الفتاة للإمبراطور؟

لا أحد سوى القهرمانة الكبرى. كل يوم تُعد جدولاً: ثلاث فتيات... اثنتان للتسلية في الحديقة، والثالثة للمخدع. أما الأخريات، فهن مجرد ظلال تنتظر الموت أو المعجزة.

*

سكت الكاراجان لحظة، ثم تابع:

في ذلك القصر ، الموت أمنية كل بنت ، والموت والفرار سواء. فكل من تحاول الفرار تُطارد حتى في أركان القصر، وحين تُقبض ، يُقطع عنقها أمام صويحباتها ، وتُلقى جثتها للكلاب.

وماذا بعد موت الإمبراطور؟

تُرسل حظاياه السابقات إلى الأديرة، يرتدين السواد، يُحلَق شعرهن، ويعشن في صمت حتى الموت. لا إمبراطورة، لا حظوة، فقط العدم.

*

سألناه عن **فو سان**، فقال الرجل بابتسامة غامضة:

–بصّرتها بكل هذا، بل عرضت عليها أن تعدل عن قرارها. لكنها أجابتني باعتدادٍ يليق بالملوك:

سأدخل قصر الحظايا ، ثم أخرج منه لأدخل قصر الإمبراطور. سأدخل إمبراطورة.

ثم أردف الكاراجان وهو يهز رأسه:

تلك الفتاة الصغيرة... أشبه بساحرات غابات شانسي. قد يحقق جنونها المعجزة... وقد يسقط رأسها غدًا على حجر السياف.

*

في الليالي الأولى داخل القصر ، جلست **فو سان** وحيدة في مخدعها الضيق. ظلال الجدران تحاصرها ، والهمس يتسرب من حجرات البنات الأخريات . كانت تتأرجح بين يقين الطفلة وأحلام المرأة.

حدثت نفسها في سرها:

أأنا طموحة أم حمقاء ؟ هل اخترت طريقي... أم ساقني قدري إليه ؟

تذكرت وجه أمها ، ودموع أبيها ، والكوخ المحترق خلفهم.

أحست لحظة بوخز الذنب ، ثم قالت في عنادٍ داخلي:

–لو بقيت معهما لكنت الآن أتعفن في الحقول. أما هنا، فأنا أسير نحو العرش.

لكنها لم تستطع طرد الخوف :

وماذا إن كنتُ رقماً آخر في جداول القهرمانة الكبرى ؟ ماذا إن لم يلتفت إليّ الإمبراطور قط؟ ماذا إن كان الموت هو النهاية الوحيدة ؟

أجابت نفسها بقوة:

الموت أقل قسوة من أن أعيش بلا معنى . وإن كان الطريق إلى العرش محفوفًا بالسكاكين، فلأمضِ عليه.

*

في إحدى الليالي ، خُيّل لها أن ظلًا يتجسد أمامها . ظل فتاة أخرى ، ربما إحدى الحظايا اللواتي قضين بلا أثر . قالت لها:

فو سان، ما الذي جاء بك إلى هنا ؟

جئت لأنني أريد أن أكون الإمبراطورة.

كلنا أردنا ذلك... لكننا متنا في صمت.

لكنني لست مثلكن.

كلنا قلنا ذلك.

ساد صمتٌ طويل ، ثم تلاشى الظل كما جاء. أما **فو سان** فابتسمت رغم خوفها ، وقالت لنفسها:

لا... أنا مختلفة. سأكون القصة التي تُروى، لا التي تُنسى.

*

وهكذا، بين جدران القصر المهيب ، بدأت **فو سان** رحلتها نحو المجهول . لم تكن تعلم إن كانت ستحقق حلمها وتجلس على عرش التنين الأصفر ، أم أن السيف سيباغتها في ساحة القصر.

لكن شيئًا واحدًا كان مؤكدًا:

أن تلك الطفلة الفلاحة ، التي غادرت قريتها ورفضت أن تكون مجرد ظل ، قد دخلت التاريخ بخطوة واحدة جريئة ، حين أعلنت أمام الكاراجان:

سأدخل قصر الحظايا... لأخرج منه إمبراطورة.

طلت تردد في سرها :

سأدخل قصر الحظايا... لأخرج منه إمبراطورة.

بنات الحظايا
حين يصبح الجمال سجناً

كان قصر **بنات الحظايا** ليس بدعة في التاريخ؛ بل كان تقليداً ضارباً في أعماق الزمن. صحيح أنه وُلد في الصين ، منذ أربعة قرون قبل الميلاد ، بتوقيع أقدم أباطرتها الذين رأوا في المرأة زينة تُحجب عن العامة وتُقدّم قرباناً للعرش ، لكنه لم يبقَ صينياً خالصاً. تسلّل إلى الحضارات الفارسية والروسية والهندية ، حتى صار سمة من سمات الملك المطلق ، ذاك الذي لا يُراجع، ولا يُسأل عما يفعل.

في فارس ، كانت النساء يُسقن إلى أسواق النخاسة بعد موت سيدهن . في روسيا ، كان سادة الأقاليم يتنافسون على أجمل الصغيرات ، كأن الجسد سلعة والمجد يُقاس بامتلاك الأنثى . في الهند، لم يكن الموت رحمة، بل كانت الفتيات يحرقن أحياء مع جثة سيدهن ، لئلا يحملن ذاكرة رجل غيره . ولم ينجُ من هذا القدر الأسود سوى الحضارة الفرعونية التي قدّست المرأة ، والحضارة العربية التي رفعت من شأنها، فأبقتها حرة لا تُباع ولا تُشترى.

لكن الصين كانت مسرحاً خاصاً لهذا القدر . هنا ، يقف **الكارجان الإمبراطوري**، الرجل المكلّف بإنشاء مؤسسة بنات الحظايا ، يحدث نفسه:

أيعقل أن يكون الجمال لعنة ؟ أم أن لعنة السلطة أكبر من أي جمال ؟

كان الكارجان يروي للإمبراطور **ثايت سونج** قصة فتاة دخلت المؤسسة في الثالثة عشرة من عمرها. كانت مزيجاً من البراءة والذكاء ، تحمل في عينيها بريقاً يشي بشيء يتجاوز دورها المرسوم. لم تكن كبقية الفتيات اللواتي يسلمن مصيرهن لقدر محتوم.
قال الكارجان للإمبراطور وهو يطأطئ رأسه بخشوع:

منذ لحظة دخولها ، يا مولاي ، أظهرت حماسة نادرة. أربع سنوات فقط كانت كافية لتجعل منها ألمع التلميذات. أتقنت لغة الأشراف ، لغة النساء النبيلات في قصور الصين ، وتعلّمت فنون الضيافة واستقبال علية القوم . صارت تحفظ الأساطير وترويها كأنها عاشت أحداثها. أصبحت خَبيرة في اختيار الثياب ، تعرف ما يلائم كل سنّ وقوام. بل صارت تعرف كيف تضحك ضيفك ، وكيف تذيب وحشة الليل بقصة أو نظرة أو ابتسامة .

لكن الكارجان لم يُكمل ، فقد انحنى أكثر ، وخفض صوته:

إنها الآن في المرحلة الأخيرة ، مرحلة التهيئة لتكون تسلية لجلالتك... غير أن في الأمر ما يثير قلقي. ثمة وهج في داخلها، يا مولاي ، ليس كغيرها. إنها تتعلم لا لتخدم ، بل لتفهم. وكأنها تدرك أن وراء هذا القصر جداراً آخر من المعنى .

ساد الصمت ، ولم يرد الإمبراطور . كانت عيناه الضيقتان تتأملان سقف القاعة المزينة بالتنين الذهبي ، بينما ظل الكارجان يحاور نفسه في داخله :

أأنا الذي أهيئ الفتيات للهلاك ؟ أم أني عبد يطيع الأوامر؟ ما ذنب هذه الصغيرة التي شُدت من يد أمها في الريف لتُصبح لعبة في يد سيد العرش ؟

الفتاة نفسها، في تلك اللحظة ، كانت تجلس في قاعة التدريب. حولها مرايا ضخمة تُظهر لها جسدها من كل زاوية . لم تعد ترى طفلة الثالثة عشرة التي جاءت مذعورة ، بل امرأة تتشكل شيئاً فشيئاً بفعل التعليم والانضباط والإكراه . حدّثت نفسها بصوت مرتجف :

أهذا أنا ؟ أم صورة صنعها القصر لي ؟ لقد علّموني كيف أجلس ، كيف أبتسم ، كيف أُسكت الرغبة أو أُشعلها في عينيّ... لكنهم لم يعلموني كيف أكون نفسي .

كانت المعلّمة تقترب منها ، تصحح وضعية يديها ، تهمس لها:

تذكري، عليك أن تكوني كالمرآة ، تعكسين رغبات الرجل دون أن تُظهري ذاتك .

فتبتسم الفتاة ، لكن داخلها كان يتمزق :

كيف أكون مرآة وأنا أرى داخلي يتوهج ؟ كيف أختفي وأنا أريد أن أكون ؟

في الليل، حين يهدأ صخب القصر، كانت تكتب بخيالها على جدران الغرفة :

أنا لست لعبة. أنا ظلٌّ يبحث عن جسده. أنا حكاية أعمق من أسطورة تُروى لملل الضيوف. أنا روح تريد أن تحيا .

ذات يوم، جاء الكارجان ليختبرها. جلس أمامها في قاعة الاستقبال ، وقال لها بصرامة ظاهرية تخفي ارتباكاً داخلياً:

احكي لي أسطورة التنين واللؤلؤة، كما لو كنتِ أمام الإمبراطور .

ابتسمت الفتاة، رفعت رأسها ، وبدأت تروي :

كان التنين يعيش في بحرٍ لا قرار له، يبحث عن لؤلؤة الخلود. لكنه كلما اقترب منها، ابتعدت عنه أكثر. لم يكن يدرك أن اللؤلؤة لم تكن في البحر، بل في داخله .

صُدم الكارجان . هذه ليست الرواية التي دُرّست لها

من علمكِ هذا ؟

قالت بهدوء متمرد :

الحياة يا سيدي. ليست الأسطورة عن التنين والبحر ، بل عن كل رجل يبحث خارج ذاته عمّا لا يملكه في داخله.

أحس الكارجان برعشة تسري في أوصاله. لم يكن يسمع مجرد فتاة مدربة على التسلية ، بل صوتاً يجرؤ على الفلسفة داخل جد*ران الحريم . صوتاً يوقظ السؤال :*

هل نحن أسرى ؟ أم أننا مشاركون في جريمة صنع القيو د؟

في تلك اللحظة، تذكر الكارجان وجوه عشرات الفتيات اللواتي مررن قبلاً ، كيف اندثرن في صمت ، وكيف صرن أشباحاً في ذاكرته القوية . لكنه أمام هذه الفتاة ، أحس بشيء يتجاوز العادة. كأنها تقاوم بلغة خفية ، مقاومة لا بالسيف ، بل بالكلمة ، بالفكرة ، بالنظرة.

حين دخل الإمبراطور في اليوم التالي ليرى بنفسه ما أعدوه له ، جلست الفتاة أمامه ، وقد أُلبست ثوباً أبيض مرصعاً باللؤلؤ. تبسمت برقة ، ثم رفعت نظرها نحوه بثبات. قال لها:

قيل لي إنك بارعة. دلّيني على براعتك .

أجابت بصوت مزيج بين الطفولة والأنوثة:

البراعة، يا مولاي ، ليست في أن أسليك ، بل في أن أجعلك ترى نفسك كما هي .

ارتبك الإمبراطور للحظة. لم يعتد أن تخاطبه امرأة بهذه الجرأة المقنّعة بالنعومة. لكن داخله كان يعرف أنها لم تقل إلا الحقيقة.

وبينما ظل البلاط يضحك ويصفق لمسرحية الجمال والهيبة، كان شيء ما يتغير بصمت : فتاة صغيرة تحاول أن تكتب حريتها داخل قصر بُني لقتل الحرية ، ورجل عجوز (الكارجان) بدأ يسمع صدى ضميره في صوتها ، وإمبراطور تزلزلت روحه بكلمة واحدة.

لقد أدرك الجميع، ولو للحظة خاطفة، أن **قصر بنات الحظايا لم يكن سجناً للنساء فقط ، بل مرآة لسجن أكبر: سجن السلطة نفسها.**

بين الحظايا وعرش التنين:
حكاية فو سان والإمبراطور تايت سونج

جلس الكاراجان في ظلّ المصابيح الزيتية المتراقصة، والعيون مسمّرة إليه، كأن كل كلمة تتساقط من فمه تحمل معها سرًّا من أسرار القصور الصينية القديمة. كان صوته رخيمًا، ينساب بين الحضور كجدول هادئ يخفي بين مياهه تيارات عميقة.

قال وهو يرفع بصره إلى السقف المزخرف:

لقد كانت تدرك ، يا بنيتي ، أنّ شبابها قد يُفنى وراء أسوار قصر بنات الحظايا دون أن تحظى بلحظة وقوف بين يدي الإمبراطور تايت سونج . كان الحلم بعيدًا ، لكن الحلم حين يسكن الروح يتحول إلى قدر . القرار لم يكن بيدها، بل بيدي أنا، أو بيد القهرمانة الكبرى التي لا عقاب لها في الصين إلا السيف القاطع.

صمت لحظة ، ثم تابع بنبرة أكثر توتّرًا:

وفي يوم من الأيام ، تسلّلت خلسة . كانت قد جمعت شجاعتها كما يجمع المحارب سيفه ، وعبرت الممر المظلم الفاصل بين قصر الحظايا وحديقة القصر الإمبراطوري. هناك ، تحت سماء مضاءة بقرص قمرٍ صينيٍّ عتيق، فوجئ بها الإمبراطور أمامه ، بكل بهائها ، وشبابها المتوثّب ، وعينيها اللتين جمعتا بين التحدّي والرغبة في الحياة .

ارتجّ المكان. هرع الحرس بسيوفهم المشرعة ، وقد تجهزوا لقطع رأسها في اللحظة ذاتها. لكن صوت الإمبراطور اخترق السكون ، حاسمًا:

دعوها .

تقدّم رئيس الحرس بخطوات مترددة ، صوته مزيج من الولاء والوجل:

يا مولاي، هذه الفتاة خرقت القانون ، هربت من قصر الحظايا ، ورأتك على غير الهيئة التي يليق أن يراك عليها أحد. هذه جريمة عقوبتها الموت .

ابتسم الإمبراطور ، تلك الابتسامة التي تجمع بين السلطان والإرهاق ، وقال:

بعد أن أسمع منها ما دفعها إلى ارتكاب هذه الجريمة ، افعلوا بها ما تشاؤون. تقدّمي يا فتاة .

اقتربت بخطوات بطيئة، قلبها يخفق كطبل حرب ، وصوتها محاصر بين الخوف والرجاء. تحدّثت دقائق معدودة ، لكن كلماتها بدت كأنها نسجت خيوطًا سحرية حول عقل الإمبراطور. وبعد صمت قصير قال:

أعيدوها إلى قصر الحظايا... لقد عفوت عنها .

*

تساءلت الفتاة التي كانت تُنصت بشغف :

أكان الإمبراطور شابًا آنذاك يا سيدنا الكاراجان ؟ .

ابتسم الرجل ، ابتسامة تحمل مرارة المعرفة ، وأجاب: كلا ، كان قد تجاوز الخامسة والخمسين. أنهكته ملذاته، ونهمه في طلب المتعة من كل ما حلال وحرام. كنّا نعرف أنّ له أكثر من مئة وستين ولدًا وبنتًا من حظايا القصر ، ذلك القصر الذي لم يكن سوى مسرح لمتعته الخاصة .

تدخّلت أخرى، وقد تلمع في عينيها لمعة الدهشة:

إذن ، نسيها بعد تلك المقابلة السريعة ؟

هزّ الكاراجان رأسه ، كمن يستحضر ذكرى بعيدة:

هذا ما ظننّاه جميعًا. لكننا كنّا واهمين. ذلك الرجل الخبير بالجمال لم يكن ليفلت من ذاكرته صورة تلك التحفة الأنثوية الصغيرة.

صمت عنها ثلاثة أشهر ، قضى معظمها على فراش المرض ، لكن ما إن أفاق ، حتى طلبها لتكون أنيسته الوحيدة على مدى عام كامل .

ساد الصمت بين المستمعين ، قبل أن اقطع السكون بقولي:

لقد حققت رغبتها إذن... وأوقعت الملك المريض في براثن غرامها .

ارتفع صوت الكاراجان ، وقد أخذ يلوّن حديثه بنبرة فلسفية ، كمن يزن أقدار البشر:

في رأيي ، أن فو سان لم تكن مجرد عشيقة ، بل كانت لعنة محبوبة. ربما كانت هي التي عجّلت بموته ، لا بيدها وإنما بجمالها ، بحضورها الطاغي الذي امتصّ ما تبقّى له من قوة .

اقتربت المستمعة أكثر، عيناها تحملان سؤالًا لم يجرؤ غيرها على طرحه:

أكانت تأمل أن يتزوجها ؟

ضحك الكاراجان ضحكة قصيرة ، أقرب إلى السخرية منها إلى الفرح ، وقال:

ذاك كان المستحيل بعينه. فالإمبراطور الصيني لا يتزوج إلا بامرأة واحدة ، تختارها تقاليد الدولة من أشرف وأعرق أسر الصين. فو سان، مهما بلغ جمالها، كانت ابنة الفلاح البسيط، وغاية أملها أن تُخلّد في ذاكرة الإمبراطور، لا أن تُزفّ إليه زوجة على عرش التنين .

*

غير أن الحوار لم ينته عند هذا الحد. فقد بدا كأن أرواح الحاضرين جميعًا قد انجذبت إلى سؤال واحد : ما الذي كان يدور في عقل فو سان نفسها ؟ .

هل كانت تدرك أنّها تدخل لعبة الموت والحياة ، وأنّ لمسة واحدة من الإمبراطور قد تحوّلها إلى ملكة متوّجة في روحه ، أو إلى جثة هامدة على رصيف القصر ؟

هل كانت تخوض مغامرتها مدفوعة بشغف الحب ، أم بغريزة البقاء ، أم برغبة الانتقام من قدرٍ جائر وضعها بين الحظايا أسيرة ، بدلًا من أن تكون سيدة حرة ؟ .

في تلك اللحظة ، بدا أنّ الحوار الذي يدور لم يعد بين الكاراجان والمستمعات، بل بين الذاكرة والخيال، بين التاريخ وما يختبئ خلفه من أسرار النفوس.

*

قال الكاراجان ، وقد غرق صوته في حزن عميق:

لقد كانت فو سان في جوهرها ثائرة صامتة . امرأة فهمت أن الجسد قد يكون جسرًا للخلود أو هاوية للفناء . ربما لم تبحث عن الزواج ، لكنها كانت تسعى إلى أن تُكتب سيرتها في طيات الأسطورة ، أن تخرج من صمت القصر إلى ضوء الإمبراطور. وهذا ما حققته بالفعل. لقد كانت تعرف أن الحظايا يُنسين، إلا هي. كانت تعرف أنها ستبقى ندبة في ذاكرة تايت سونج حتى وهو يغادر الدنيا .

*

وبينما تلاشى صوته، ساد صمت ثقيل . شعرت الفتيات أنهنّ أمام مرآة زمنية تعكس لهنّ صراعًا أبديًا بين الحب والسلطة ، بين الجسد والروح ، بين القدر والحرية.

كان في القصة ما يتجاوز حدود التاريخ ، إذ تحوّلت حكاية فو سان إلى سؤال وجودي:

هل الإنسان صانع قدره ، أم أسير أهواء الآخرين ؟ هل الجمال نعمة تُنقذ ، أم لعنة تفتك بصاحبها ومن يقع في شباكه ؟

وبقيت العيون شاخصة ، والقلوب معلّقة، كأن فو سان لم تمت، بل ما زالت تسير بينهن ، حاملة سرّها العميق ، بين الحظايا وعرش التنين.

كانت تحلم حلما غريبا : أنها سوف تحطم قصر الحظايا . هل يمكنها القدر من رؤية حلمها .

و أغمضت عينيها على فراشها البسيطة ، التي كانت تعرف جيدا أنه سوف يكون في الغد القريب وثير .

فو سان
وشباك الحرير حول التاج

فيما كانت تأمل؟

كانت تأمل في المستحيل ، في أن تصل إلى قلب ولي العهد ، ذاك الفتى الغارق في أوهام الحب العذري ،شاعر ضعيف الشخصية ، يلوذ بالخيال كلما ضاقت به أروقة القصر الإمبراطوري . كانت فو سان تعرف أن طريقها إلى العرش لا يمرّ بالدهاء وحده ، بل بقدر ما تمرّ عبر أوتار القلب.

خلال العام الذي قضته في القصر، استطاعت أن تثير فضول الأمير جوات سونج. كان أبوه الإمبراطور كثيرًا ما يستدعيه ليشهد جلساته مع فو سان ، ليستمع إلى غنائها الشجيّ ، وإلى قصصها التي تمزج الحكمة بالفتنة. لم تكن تغنّي له وحده، بل للعالم بأسره، غير أنّ عينيها كانتا تراقبان الأمير في صمتٍ محموم.

نشأت بينهما علاقة غرام صامتة ، لا صوت فيها إلا همس النظرات ، تلك النظرات الساهمة الماكرة التي تُطلقها فو سان وهي تجيش كل جيوش جمالها وفتنتها ، لاقتناص الفتى المرهف المتهافت الشخصية.

كانت تدرك أن ضعفه هو السلم الذي ستصعد عليه إلى عرش تاج الصين.

قال الكاراجان ، أحد مستشاري القصر العجائز ، حين سُئل عن الأمر :

كما قلت لك ، هذا هو المستحيل. الأمير متزوج من أميرة تنحدر من أسرة عريقة ، ثرية ، شابة في الثامنة عشرة من عمرها ، غاية في الجمال والرشاقة. لكن فو سان... كانت تطمح لما هو أبعد. كانت ترى

نفسها الإمبراطورة المتوَّجة التي تحرّك خيوط الحكم من خلف الستار ، وتقيّد الإمبراطور الشاب بولدٍ تهبه إياه ليغدو وليًا للعهد.

فسأله الراوي:

والأميرة زوجته، أ لم تهبه ذلك الولد ؟

ابتسم الكاراجان ابتسامةً غامضة وقال:

ذلك هو الوتر الحساس الذي عزفت عليه فو سان بمهارة الثعالب.

كانت تعلم أن نقطة الضعف الكبرى في قلب الأمير تكمن في خوفه من العقم ، وفي قلقه من غضب أبيه الذي طالما أوصاه بالنسل. فذات مساءٍ ، اختلت بالأمير في حديقة القصر ، حيث الأشجار تتمايل كأنها تُصغي للهمسات. كانت السماء رمادية ، والنسيم يجرّ وراءه تعب الصيف.

قال لها الأمير بصوتٍ واهنٍ كطفلٍ فقد لعبته :

لست أدري يا فو سان، ماذا سأفعل بعد موت الإمبراطور؟

تظاهرت بالجزع، وضعت كفّها على صدرها وقالت بعاطفةٍ مصطنعة :

بحق بوذا ، لا تقل هذا يا صاحب السمو ! مولانا الإمبراطور بخير ، سترعاه السماء كما رعته في كل معاركه ، سيقوم من مرضه ويعود إلى مجلس الوزراء ، إلى حكمته التي لا تنضب.

لكن الأمير لم يُصدّق الطمأنينة. قال وهو يحدّق في الأفق :

ليت الأمر كما تقولين يا آنسة فو. لقد حدّثني بالأمس بصوتٍ مرتجف عن إحساسه بقرب الرحيل . أوصاني بشعبه العزيز، وقال لي: يا جوات سونج، ستمنحك السماء ولدًا يرث تاجي بعدي، فاجعل كل همّك أنت وزوجتك الأميرة ونج، في أن يكون ذلك الولد امتداد حكمنا ونعمة بوذا على بلادنا.

أطرقت فو سان برهة، ثم قالت بصوتٍ ناعمٍ فيه دفء الأفعى :

لشدّ ما يحبّك مولانا الإمبراطور يا صاحب السمو.

ويحب زوجتي الأميرة ونج كما يحبّني، لا يفتأ يوصيني بها.

قالت في مكرٍ خفيف ، وهي تنظر إلى الماء في البركة الصغيرة أمامها كأنها ترى فيه وجهًا آخر غير وجهها :

وإنها لتستحق كل خير وسعادة. لكن ، يا صاحب السمو ، ألم تستشر أطباء القصر في أمر الأميرة ؟

رفع حاجبيه في دهشة :

أي أمرٍ تعنين يا فو؟

أقصد... أن جلالة الإمبراطور سيشفى إن شاءت السماء ، لو بشّرته بقرب تحقق أمله في مولد وليّ العهد. لماذا لا تستشير أطباء القصر في هذا ؟

ابتسم الأمير في حياءٍ غافل:

ستُرزق الأميرة حين يشاء القدر. لست أتعجل الأمر يا فو.

قالت بنبرةٍ فيها ظلال الأسى:

إنكما زوجان منذ ثلاثة أعوام، يا مولاي.

ضحك بخفةٍ محاكة بالخوف :

وأنا في الثالثة والعشرين، وهي في الثامنة عشرة. العمر أمامنا طويل، لا تقلقي.

كانت كلماته ساذجة كطفلٍ يظنّ أن الغد وعدٌ دائم. لكنها لم تتركه يستسلم لوهم الأمان.

قالت بصوتٍ خافتٍ مخنوقٍ بالعاطفة المصطنعة :

صدقت يا صاحب السمو، الحياة لا تحلو إلا بالأطفال يملأون القصر ضحكًا وبكاءً. لكن... كما قلت، العمر أمامكما طويل.

ثم سكتت، وتركت كلماتها تتسلل إلى روحه كسمٍّ بطيءٍ في شرابٍ معسول.

في تلك اللحظة، شعر الأمير بشيءٍ غامضٍ يشده إليها. كانت مختلفة عن زوجته الرقيقة الصامتة ، مختلفة عن نساء البلاط اللواتي يتحدثن بقدرٍ محسوب من الكلمات. كانت فو سان تحرّك عقله ، تملأ فراغه بكلماتٍ تلمس أعمق مخاوفه ، وتُرضي في الوقت ذاته غروره الذكوري الجريح.

ومضت أيامٌ قليلة حتى بدأ الأمير يستدعيها أكثر من المعتاد. كانت تقرأ له الشعر وتغني، ثم تستمع لشكواه بصبر العاشقة . كانت كل حركةٍ منها محسوبة ، كل ابتسامةٍ مدروسة ، كل تنهيدةٍ محسوبة الثمن.

كانت تعرف أن الطريق إلى العرش يبدأ من عيني الأمير، ويمرّ عبر رحم الخديعة.

كانت تتخيله بعد موت أبيه يجلس على العرش ، وهي بجانبه ، في ثوبٍ حريريٍّ أحمر، ينعكس عليه بريق التاج الإمبراطوري. كانت ترى نفسها لا مجرد امرأة ، بل فكرة. فكرة السلطة وقد تجسدت في أنوثةٍ ساحرة.

لكنها في أعماقها لم تكن تحبّه.

كان حبها الوحيد هو المجد ، حبّها للسلطة أشد من رغبتها في الحياة . كانت تنظر إلى القصر كما ينظر العابد إلى المعبد ، ترى فيه قدس أقداسها التي يجب أن تبلغها ولو عبر الدموع والدماء.

أما الأمير ، فكان يرى فيها ملاكًا يبدد وحدته . كان يرى فيها ما افتقده في زوجته الأميرة: الحضور ، الحكاية ، اللهب . كان يظن أنه يحبها ، لكنه في الحقيقة كان يحب صورته في عينيها.

وكلّما أوغلت في تمثيلها، أوغل هو في سذاجته

وفي إحدى الليالي، حين كان القصر غارقًا في صمتٍ كأنما يخفي سرًّا، خرج الأمير إلى شرفته ، فرأى ضوءًا خافتًا ينبعث من جناح فو سان. شعر بنداءٍ غامضٍ يجذبه إلى هناك ، إلى حيث ينتظره مصيره.

ألقت شباكها إذن حول الأمير...

ولم يدرِ المسكين أنّه لم يقع في حبّ امرأة، بل في مصيدة تاريخٍ تُنسج بخيوط الحرير ، وتُختم بخاتم العرش.

ولم يدرِ المسكين أنّه وقع في حبّ امرأة ، بل في شباك تاريخٍ العنكبوت تُنسج بخيوط الحرير ، وتُختم بخاتم العرش.

فو سان و الأميرة وانغ شي

كان صدى أصوات الكارجان يتردد في دهاليز القصر الإمبراطوري كأنّه صدى لأسطورة غابرة ، فالكلمات عندهم ليست مجرد أخبار، بل شذرات من مصائر الآخرين.

قال الكارجان بصوت خافت وكأنه يتلصص على نفسه:

» ولكن في إخلاص وذكاء... ذلك الفتى كان عاشقًا لزوجته الأميرة الجميلة الطيبة وانغ شي. أما فو سان ، فقد رأت أن تقرّب نفسها من الأميرة ، زوجة ولي العهد ، لعلها تنسج خيوطًا أعمق في شبكة القصر المعتمة «.

كانت فو سان ، المحظية الغامضة ذات العينين اللامعتين ، تسير على أطراف نواياها كما تسير قطة على حافة هاوية . منذ دخلت قصر الحظايا ، تخلّت عن اسمها وعن قريتها وعن ماضيها ، لكنها لم تتخلّ عن حلمها بأن تصنع لنفسها مصيرًا مختلفًا . ولأنها تعلم أن القصر مكان لا يتسامح مع الضعف ، اختارت أن تُلبس خيوط خططها ثوبًا من البراءة والإخلاص.

في مساءٍ هادئٍ، تحت سقفٍ مطرز بالذهب واللازورد ، تقدّمت فو سان نحو الأميرة بخطوات مدروسة. كان القمر يتدلّى من نافذة المشربية ، يسكب على البلاط الأبيض ضوءًا شبيهًا بدموعٍ متجمّدة.

قالت وهي تنحني:

مولاتي، هل تأذنين لي أن أصحبك في زياراتك إلى المعابد البوذية في القرى المجاورة لبكين ؟

رفعت الأميرة رأسها عن كتاب الأدعية ، بدت ملامحها كأنها وجه تمثال في معبد قديم ، وعلت صوتها نبرة حذرٍ ممزوجة بعتاب رقيق :

أتعلمين يا فو سان أنّ قانون الحظايا يمنع خروجهن من قصرهن أو قصر الإمبراطور إلا بأمر خاص ، وأن تلك الأوامر لا تُعطى إلا لحضور الصلوات السنوية في معبد بكين الكبير؟

لكن فو سان لم تتراجع، واستعانت بخبث الشياطين وقد غلّفته بدموعٍ شفافة :

يا مولاتي ، إنني وحيدة أمي وأبي . جاءا بي إلى الحياة بعد الأربعين ، بعد أن علّمهما كاهن قريتنا في هانان رقيةً ظلّا يتلوانها في المعبد حتى أتى الحمل المستحيل .

قاطعتها الأميرة فجأة ، كأنها تذكرت نصًا محفورًا في ذاكرة القصر:

آنسة فو سان ! أرجوك لا تذكري اسم قريتك ولا اسم أبيك وأمك . أنتِ تعرفين أنّ من تدخل قصر بنات الحظايا تقطع وإلى الأبد كل صلة بماضيها . إذا ذكرتِ أي شيء عن ذلك الماضي ، ولو كان اسم أبيها أو أمها ، فالموت هو العقوبة الوحيدة . أرجوك كوني حريصة يا فو سان ، فإننا نحبك ونحرص على ألا يمسكِ شر.

أطرقت فو سان رأسها ، وارتعش في داخلها تيارٌ من وعيها الخاص :

أ يعقل أن يخاف القصر حتى من أسماء الموتى ؟ أم أن الأسماء ، في هذا المكان ، سيوفٌ مسلّطة على الأعناق ؟

ثم رفعت عينيها ونطقت بكذبٍ يشبه صلاة إبليس:

يا صاحبة السمو ، إنني أموت راضية إذا كان في موتي تحقيق أمنيتك. لقد تعلّمت أمي من كاهن قريتنا رقية دأبت على تلاوتها في معبد القرية ، ولن تصدقي يا مولاتي : بعد أقل من عام حملت بي.

قالت الأميرة باستغراب ، وقد غشّت صوتها غيمة دهشة:

وفي الأربعين يا فو ؟ بعد عشرين عامًا من الزواج ؟

أومأت فو سان بحنان مصطنع:

نعم يا مولاتي . حملت بي بعد أن قطعت الأمل في هذا.

وفي قلب الأميرة ، أخذ تيار الوعي يجري سريعًا :

أ يمكن أن يكون في تلك الرقية أمل لطفل طال انتظاره ؟ أم أنّ فو سان تفتح عليّ بابًا من الوهم ؟

ثم سألتها بلهفة كمن يخشى أن يبدّد سؤاله الحلم:

أ تعرّفين تلك الرقية يا فو سان؟

ابتسمت فو سان ابتسامة حملت بين طيّاتها خبثًا وأنوثةً مقنّعة بالبراءة:

مولاتي، أليس لهذا طلبت إليكِ أن أصحبكِ إلى المعابد التي تزورينها ؟ سوف أتلو تلك الرقية كما علّمتني أمي ، بقلبٍ خاشع خاضع لإرادة الآلهة حتى لا تبخل السماء على مولاتي بالأمنية الغالية.

قالت الأميرة برقة ناعمة كسقوط ثلجٍ على صخرة:

أتحبّينني إلى هذا الحد يا فو سان؟

فأجابت فو سان ، وصوتها يرتجف افتعالًا :

مولاتي ، ألستُ أعرّض نفسي للموت بقطع الرقبة كي يسعد قلبك بالطفل الذي يتمناه مولاي؟

حينها تنفّست الأميرة بعمق ، كأنها تفرغ عن صدرها أثقال القصر وأحلامه :

وما أتمناه أنا أيضًا يا فو . إنني أحب الأطفال حبًا كبيرًا . كل ما أخشاه ، إذا رزقتني السماء بالطفل المنتظر ، أن تشغلني رعايته والحدب عليه عن القيام بواجبي نحو الأمير، ذلك الذي أحبّه أكثر مما أحبّ نفسي.

لمعت عينا فو سان كوميض خنجرٍ في الظلام :

مولاتي ، ستعطيك السماء ما تريدين ، وستسعدين بالطفل بقدر سعادتك بوالده سمو الأمير.

هنا توقّف الكارجان عن السرد قليلًا ، وألقى نظرةً إلى مستمعيه، ثم قال بنبرة مَن يكشف لغزًا قديمًا :

وماذا كان هدف هذه المحظية من الخروج في صحبة الأميرة؟

انحنى الرجل المسنّ الذي يجلس على عتبة القاعة ، وصوته يخرج كأنه يأتي من بئرٍ عميق :

كانت تهدف إلى أشياء كثيرة ، أهمّها أن تكسب صداقة الأميرة ، زوجة ولي العهد ، وعطفها بعد أن كسبت صداقة الأمير نفسه وعطفه . ألا يكفيها عطف الإمبراطور الأب الذي شغف بها واستبقاها في قصره عامًا كاملًا؟

في تلك اللحظة، تداخل صوت الداخلي لفو سان. كانت في غرفتها، تنظر إلى انعكاس وجهها في مرآة صغيرة أهدتها إياها إحدى الحظايا القدامى .

هل أنا شريرة ؟ همست في نفسها . أم أنا مجرد امرأة تحاول النجاة في قصر يأكل الضعفاء ؟ كان صوت الأميرة يتردد في ذهنها مثل دعاء : أتحبّينني يا فو سان ؟

مدّت يدها إلى المرآة، وكأنها تريد أن تمحو صورة نفسها القديمة . في أعماقها، كانت تتناوبها مشاعر متناقضة : طموح ، خوف ، رحمة ، انتقام ، وإيمان غامض بأن مصائر البشر تُحاك بخيوط الآلهة ، لكن بأصابع النساء.

وفي جناح الأميرة ، جلست وانغ شي أمام نافذتها تتأمّل القمر الذي بدا كطفلٍ نائمٍ على صدر السماء :

أ يمكن أن تأتي تلك الرقية بالطفل الذي أنتظره ؟ أم أنني أضع حلمي في يد امرأة لا أعرف دواخلها ؟ غلبها الحنين إلى أمها البعيدة في الجنوب ، وإلى طفولتها قبل أن تصير أميرةً محاصرة بالطقوس والأسوار.

في هذه اللحظة الحالمة، بدا القصر الإمبراطوري كله كأنه معبد كبير من معابد الصين ، تتردّد فيه صلوات صامتة وأكاذيب ناعمة ، حيث تختلط الطاعة بالخيانة ، والحب بالمصلحة ، والدين بالسياسة.

كان الليل ينحدر ببطءٍ ، يضع على كل قلبٍ في القصر حجارةً من الشكوك . في الغرف المغلقة ، كانت الأحلام تتناسل كما تتناسل المؤامرات ، وفي الخارج كان الكارجان يواصل سرد الحكاية ، وكلّ واحدٍ منهم يتساءل في نفسه :

من سيكتب الفصل القادم؟ الأميرة، أم فو سان، أم القدر؟

فو سان... زهرة السم في قصر التنين

كانت صحبتها للإمبراطور كالنار الباردة، تُدفئه حينًا وتلتهمه حينًا آخر. قيل إن ما أصابه من أمراض الشيخوخة المبكرة لم يكن إلا ثمرة معاشرته لتلك الشابة الغامضة **فو سان** ، تلك التي دخلت القصر كنسمة صيفٍ خجولة ، ثم ما لبثت أن تحولت إلى إعصار هادئ يقتلع جذور السلطة من باطنها.

حتى عناصر **المقاومة السرية** ضد حكمها، حين تهاوى العرش ، لم تتردد في اتهامها بأنها كانت تدسّ للإمبراطور جرعاتٍ محسوبة من السم ، جرعاتٍ لا تميته على الفور، بل تبقيه متعبًا، متعلّقًا بها ، مستسلمًا ليدها التي تُداويه وتُضعفه في آنٍ واحد . ومع ذلك ، لا يمكن إنكار أن هذه المرأة استطاعت بذكاء خرافي أن تكتسب مكانةً نافذة لدى **وليّ العهد** وزوجته **الأميرة وانغ** ، حتى غدت هي الآمرة الناهية في قصر «بنات الحظايا»؛ القصر الذي كان مسرحًا لأعنف المعارك الصامتة بين النساء ، حيث تُستبدل الدماء بالابتسامات ، والخناجر بالعطور.

وسأل الراوي العجوز ، الذي كان أحد رجال القصر القدامى:

هل كان هدفها أن تحتلّ مكانك أنت ، أيها الكارجان الكبير، أو أن تحلّ محل القهرمانة العظمى ؟

ابتسم الكارجان ابتسامةً حزينة وقال :

لم تكن تسعى لمكانٍ بعينه ، بل كانت تريد أن تُعيد تشكيل القصر كلّه على صورتها . كانت تسعى إلى **تحطيم النظام القديم** ، ذلك النظام الذي يعود إلى جذور الصين الأولى . أرادت أن تكون المرأة التي لا يُرى من بعد جمالها غير ظلّها . ولم يكن للإمبراطور الجديد ، حين تولّى الحكم ، من يُسحره بجمالها ودلالها سوى **فو سان**.

تردّد السؤال بين الحضور:

وأين ذهبت الأميرة وانغ ، زوجته الأولى ؟

تنهّد الرجل ، ثم قال بصوتٍ متهدّج كأنه يعترف بخطيئة:

كانت وانغ أولى ضحاياها . لم يكن للأميرة أن تصمد أمام دهاء تلك الفتاة . فو سان لم تكن ترى في وانغ امرأة من لحمٍ ودم ، بل عقبة من حجر، يجب أن تُزال بهدوء . كان لا بدّ لها من التخلص من منافستها الأولى على قلب الأمير، وها هي الفرصة جاءت حين ضعُف الإمبراطور القديم وبدأت الصيحات تتعالى في القصر معلنة موته.

توقف الكارجان قليلًا ، كمن يستعيد مشهدًا رآه بعينيه ، ثم تابع بصوتٍ تملؤه الحسرة:

وها نحن نعود إلى تلك الأيام ، إلى **ليلة الموت والوراثة** ، حين انقلب القصر من مأتم إلى ولادة. أعترف للتاريخ وأنا الرجل الذي خدم الإمبراطور طوال نصف قرن أنني كنت جزءًا من نجاح خطط فو سان الأولى، بل كنت أداة من أدواتها من حيث لا أدري.

قاطعه الراوي قائلاً:

المخططات الأولى فقط ؟

خفض الكارجان رأسه وقال في ألم :

نعم ، أما المخططات التالية فقد أسهم فيها ابني ، ذلك الأحمق الذي لم يرَ في فو سان سوى امرأة جميلة ، فاندفع في خدمتها، حتى كان نصيبه الحرق حيًّا في فناء القصر أمام العيون كلها. كان صراخه كأنين الرياح في ليل بكين البارد.

ساد الصمت لحظة ، وكأنّ الأرواح القديمة عادت لتستمع . ثم قال الراوي في حذر:

ولكن، بعد موت الإمبراطور ، ألم يكن عليك أن تتخلّص من كل من في قصر بنات الحظايا ؟

أجاب الكارجان وهو يحدّق في الفراغ :

نعم، كانت تلك هي مهمتي الرسمية ، حسب التقاليد العتيقة. كان عليّ أن أُخلي القصر من كل الوجوه القديمة ، وأملأه بفتيات صغيرات في السن ، جميلات ، كما تشتهي السلطة الجديدة.

وهل كان التخلص منهن يعني القتل ؟

ابتسم الكارجان بمرارة :

لا يا سيدي، أنا لست دموياً إلى هذا الحد. هناك قانون يحكم حتى العزلة والموت في قصورنا . لم نكن نقتل الحظايا ، بل نُميت فيهن الحياة . كان يُحلق شعرهنّ ، ويُجبرن على ارتداء أثوابٍ خشنة ، ويُسقن حافيات إلى أديرة الصين البعيدة ، حيث يُقضى عليهن بالنسيان . لا موتَ هناك ، بل موتٌ بطيء ، صامت ، يشبه حياة الظلّ.

سأله الراوي وهو يقترب بخطواتٍ بطيئة:

وهل كان هذا أيضًا مصير **فو سان** ؟ تلك التي أرهقت الأباطرة وأسرت الرجال ؟

أطرق الكارجان لحظة طويلة ، ثم رفع عينيه كمن يواجه قدرًا لا فكاك منه :

كدتُ أفعل ، لولا أن **الأمير الجديد**، الذي صار إمبراطورًا بعد أبيه ، تشفّع لها . كان ضعيفًا أمامها ، أسيرًا لنظراتها التي تحمل وعدًا وخطرًا في آنٍ واحد . لم يستطع أن يحكمها ، ولا أن يُقصيها.

هنا أخذ الكارجان نفسًا عميقًا ، وقال بصوتٍ مبحوح:

لكنها لم تحتج إلى القصر طويلًا ، كانت تعرف أن كل إمبراطور يشيخ في حضنها كما شاخ والده . كانت تعرف أن السلطة ليست تاجًا يُلبس على الرأس ، بل **سحرٌ يُغرس في القلب**.

ثم تابع بنبرةٍ غامضة :

وذات صباح، اختفت فو سان . لا أحد يعلم أين ذهبت . قيل إنها نُفيت إلى أحد الأديرة ، وقيل إنها ماتت مسمومةً بيدها . لكنني لا أصدق شيئًا من ذلك . أراها أحيانًا في أحلامي، تمشي بثوبٍ أبيض على ممرات القصر القديمة ، شعرها منسدل ، وصوتها يهمس :

" كلّ من أحبّني مات قبل أن يفهمني".

سكت الكارجان ، وغابت عيناه في ضباب الذكرى. بدا كأن الزمن يبتلعه ، كأن الحكاية لم تكن سوى **مرآة لجنون البشر حين يعشقون السلطة بوجه امرأة**.

كان الراوي يصغي بصمتٍ، ثم كتب في مذكرته الأخيرة :

" في الصين القديمة ، لم تكن النساء يُحكمن بالحديد والنار ، بل بالابتسامة . وفو سان كانت الابتسامة التي سمّمت التاريخ ".

فو سان
حين يذبل الورد في قصر التنين

لم يكن القانون البوذي يعرف استثناءً من تلك القاعدة الصارمة التي حكمت مصير نساء القصر منذ قرون ، قانون لا يلين ولا يرحم ، لا تُفلته دمعة ، ولا تُثنيه صرخة.

كانت فو سان ترتجف في أروقة القصر الإمبراطوري، وقد خيّم على قلبها رعب غامض لا تعرف له منفذاً، رعبٌ من مصيرٍ يقترب ببطء كأفعى تتسلل في ظلال الحرير.

لقد كسبت في أقل من عامين حظوةً لم تنلها امرأة من قبلها: أحبها الإمبراطور السابق ، وافتتن بها وليّ العهد ، حتى زوجته الضعيفة الشخصية كانت تلجأ إليها كطفلة تلوذ بظلّ أمّها . غير أن تلك الحظوة تحوّلت الآن إلى لعنة... لعنةٍ تُنذر بسقوط سريع بعد مجدٍ صاخب.

في تلك الليلة ، جلست أمام مرآتها الطويلة ، تحدّق في وجهها الذي خفت بريقه ، وفي عينيها اللتين لم تعودا تعرفان إن كانتا تشعّان أنوثة أم خوفاً.

سمعت وقع خطوات الحرس في الممرّ، ثم طرقاً خافتاً على الباب ، ودخل وليّ العهد *جوات سونج* ، بملامحه الوديعة التي تخفي وراءها حذراً ملكياً متوارثاً.

قال بصوتٍ خافت يحمل شيئاً من الأسف:

يحزنني يا فو سان ألا أستطيع أن أستثنيك من قانون بيت بنات الحظايا.

رفعت رأسها بسرعة ، وصوتها يرتجف بين تحدٍ واستعطاف:

يا صاحب الجلالة، إنني لم أعد منهن.

ابتسم الفتى ابتسامة حزينة وقال:

لقد عرض عليك أبي الراحل أن تتزوجي الأمير تين تاو، لتضمني بقاءك في القصر ، لكنك رفضت.

اقتربت منه بخطواتٍ هادئة، كأنها تمشي فوق جمرٍ من الكبرياء الممزوج بالرجاء، وقالت في خبثٍ لا يخلو من الدهاء:

يا صاحب الجلالة ، أنت تعرف لماذا رفضت.

تردّد قليلًا ، كأنه يهرب من المعنى الذي يلوح بين كلماتها:

كلا ، لا أعرف لماذا يا آنسة فو سان ؟ .

ارتجفت شفتاها ، ثم قالت وهي تخفض بصرها بخجلٍ مصطنع:

مولاي... لأنك لم تبدُ حماساً لذلك الزواج... ظننتُ أن... أن...

توقّفت فجأة ، كأن الكلمات خذلتها ، ثم همست في توتر:

يا للسماوات ، لا أستطيع حتى أن أصرّح لجلالتك بما في صدري.

كان الصمت بينهما ثقيلاً ، كأن الجدران تتنصّت على ما لا يُقال.

لم يفهم الفتى ما تعنيه الخبيثة أو لعله تظاهر بعدم الفهم ، فعدل من جلسته وقال بنبرة رسمية :

سأوصي الكارجان بأن تكون إقامتك في ديرٍ قريب من العاصمة.

قالت في سعادةٍ مصطنعة ، وهي تميل برأسها كمن يتلقّى هدية مسمومة :

حقاً لا أصدق يا مولاي أنك تريد ذلك... حقاً ؟ حتى تتاح لك زيارتي في ذلك الدير ؟

أطرق برهة ، ثم قال بصرامةٍ خفيفة:

فو سان ، أنا لم أقل إنني سأزورك.

وهنا بكت اللعينة ، دموعها كحبات لؤلؤٍ تتساقط على عباءتها الحريرية ، وقالت بصوتٍ متهدّج:

يا لتعاستي... إن رؤية وهجك السماوي يا مولاي هو ما تبقّى لي من أملٍ قبل أن أموت بالشيخوخة بين جدران الدير.

تردّد ولي العهد لحظة ، ثم قال بعد تنهيدةٍ طويلة:
لن أبخل عليك بزيارةٍ واحدةٍ وأخيرة يا فو سان.

رفعت رأسها ، وفي عينيها دمعة وابتسامة:

ما أسعدني ! ستكون تلك الزيارة الوحيدة والأخيرة يا مولاي كنز ذكرياتي إلى أن أكون في الدير.

*

لكن حين خرج الفتى من حجرتها ، كانت فو سان ما تزال واقفة أمام المرآة ، تنظر إلى انعكاس وجهها الذي بات غريباً عنها.

قالت في سرّها:

زيارة أخيرة ؟ بل بداية لحيلة جديدة يا سيدي الصغير... أنت لا تعرف كم يمكن لامرأةٍ مطرودة أن تتحوّل إلى إعصارٍ من الذكاء والرغبة.

في داخلها صراعٌ لم تعرفه من قبل: بين الأنثى التي كانت تصعد سلالم المجد بخفة الراقصات ، والإنسانة التي تخشى السقوط في العدم . كانت تسمع صوتاً خفياً في أعماقها، كأنه يهمس من بعيد:

كل ما في القصر زائل ، إلا الحيلة يا فو سان... الحيلة هي الخلود الوحيد في عالمٍ من الرجال والآلهة .

في الخارج، كان القمر يعلو فوق القصر الإمبراطوري، شاهداً على مأساة جديدة تُكتب في تاريخ النساء المنسيات ، نساء بيت الحظايا .

أما في الداخل، فقد أغلقت فو سان باب حجرتها ، وبدأت تخطط بهدوء لأن تكون الدير القادم — لا منفىً لها ، بل عرشاً خفياً جديداً ، عرشا يصل إلى حلمها .

لعنة فو سان
الإمبراطورة التي أغوت العرش

ارتكب الإمبراطور الجديد الخطأ الذي جَرّ على الصين كل الويلات.

كانت الشفقة أول بذرة للخراب ، والرحمة التي ظنّها قوة قلبه ، كانت أول ضعفٍ في عرشه.

حين زار فو سان في دير بوذي ناءٍ بين جبال «شان شي»، لم يكن يعلم أنّ تلك الزيارة ستصبح صفحةً سوداء في تاريخ السلالة الحاكمة.

كانت فو سان — رغم رأسها الحليق وثيابها الخشنة — شابةً في العشرين ، متّقدة النظرات ، يفيض وجهها بنورٍ غامض من جمالٍ روحيٍّ مشوبٍ بإغراءٍ أرضيّ . لم تكن تُشبه الراهبات الأخريات في شيء ؛ فداخلها كانت روح أنثى خرجت من بيت الحظايا ، خبيرة بفنّ الغواية ، تعرف كيف تحرّك عواطف الرجال بخفةٍ كالحرير، وكيف تجعل من الضعف سلاحًا ومن العزلة مسرحًا للغزو الصامت.

قال الكارجان ، الرجل الحكيم الذي روى القصة لتلميذه الفتى:

يا بني، لقد كانت فو سان أستاذة في الإغواء قبل أن ترتدي عباءة الرهبنة . علّمها بيت الحظايا كل خفايا النفس ، وكل أسرار العيون والأنفاس . وحين رآها الإمبراطور، رأى فيها خلاصًا من وحدته لا خطيئةً تترصّده.

قلت له بدهشة :

أتقصد أنّ الإمبراطور زارها مراتٍ عديدة ؟

قال الكارجان : :

بل تواترت الزيارات ، وتحوّل الدير إلى قصرٍ مستتر ، كأنّ بوذا نفسه يغضّ الطرف عن تلك الخطيئة. لم يكن في وسع الرهبان منع

الإمبراطور من الدخول ، فالتقاليد تمنح الملك الإلهي حريةً مطلقة ، لكنهم علموا أن الكارثة تقترب.

ثم أردف الرجل العجوز بصوتٍ عميقٍ متهدّج :

هل تظن يا بني أنّ أبناء الإمبراطور يولدون في دير ؟

عندها اتسعت عينا الفتى ، وسأل في ذهولٍ لم يخلُ من خوف:

ماذا تقول ؟ أَ وَلَدَ الإمبراطورُ ابنه في الدير ؟

ضحك الكارجان بمرارة وقال:

بل ولدت فو سان نفسها وليدًا، وادّعت أنّه ابن الإمبراطور.

في تلك اللحظة، كانت فو سان قد أحكمت خطتها ، وعرفت أنّ الطفل — أكان ذكرًا أم أنثى — سيكون جواز عبورها إلى القصر الإمبراطوري مرة أخرى ، وربما إلى العرش نفسه.

حين واجهها الإمبراطور في خلوته ، قال بصوتٍ متردّد :

أحقًّا ما تقولين يا فو سان ؟ أأنتِ حُبلى مني ؟

فأجابته بابتسامةٍ خبيثةٍ ملؤها ثقة الأنثى التي تعرف مكمن ضعف الرجل:

أجل يا مولاي ، لقد حقق بوذا لك المعجزة . سيكون لك ولي العهد مني ، كما شاءت السماء.

كانت كلماتها تلسع صدره ، بين نشوةٍ وارتباك ، بين رجاءٍ في الخلود عبر وريثٍ ذكَر، وخوفٍ من الفضيحة التي ستلطّخ كرامته في أعين الرهبان والشعب.

قال الكارجان :

من العجب أن الحل جاء من زوجته العاقر، الأميرة وان شي، التي أحبته بصدقٍ نادر.

جلس الإمبراطور جوات سوانج في قصر اليشم ذات مساءٍ حزين ، يروي لها القصة كاملة ، وقد غمر صوته حزنٌ طفوليٌّ لا يليق بملكٍ على عرش التنين. فقالت له الأميرة بصفاءٍ مؤلم :

يا زوجي العزيز ، وددتُ أن أكون أنا التي تهبك وليّ العهد، لكن السماء اختارت غيري . دعها تلد في القصر ، وسأُرضيها بلقبٍ ومقام.

رفع رأسه بدهشةٍ عارمة ، وصاح بصوتٍ مختنق:

ولكن إن وُلد الطفل في الدير، فلن يكون له حقٌّ في العرش!

ابتسمت الأميرة في مرارة وقالت :

ليكن، إذن لتأت فو سان إلى القصر ، تضع طفلها بين جدرانه ، ثم ترحل إلى حيث أرادت.

قال الكارجان :

وكان ذلك القرار هو أول مسمارٍ في نعش الأسرة المالكة.

استقبل القصر فو سان كما تُستقبل الأميرات ، هيأوا لها جناحًا في الجهة الشرقية من القصر ، وازدانت أروقة الحرملك بالحرير والزهور البيضاء . الكل يعلم أنها حاملة وليّ العهد ، وأن الإمبراطور سيعلنها أميرة من نسله ، وسيقطع لها ضيعةً فسيحة في أطراف الصين.

ووسط ترقّب القصر، جاء يوم الولادة.

دخل الإمبراطور بنفسه غرفة الولادة ، والعرق يتصبب من جبينه ، والخوف يثقل قلبه . خرجت الوصيفة «سيو في» حاملةً لفافةً أنيقة ، وقالت في خشوعٍ وهي تنحني:

مولاي ، ابنتكم.

سكت لحظةً طويلة ، كأنّ الزمن تجمّد ، ثم قال في ضيقٍ ممزوجٍ بخيبةٍ حارقة :

بنت؟ أهذه مكافأة السماء ؟

قالت الوصيفة بصوتٍ مرتعش :

لكنها يا مولاي أجمل بنتٍ في الإمبراطورية.

خرج الإمبراطور من الغرفة مطأطئ الرأس ، كأنّ العالم كله انهار فوق كتفيه . لقد خسر جولتين في لحظةٍ واحدة: خسر وليّ العهد الذكر الذي انتظره طويلاً ، وخسر أيضًا قلب فو سان ، التي تحوّلت في عينيه إلى لعنةٍ تتزيّن بالحرير.

سألته أنا في فضولٍ يائس:

ولماذا خسرها ، يا سيد الكارجان ؟ وقد صارت في منزلة الأميرات ؟

قال الرجل وهو يحدّق في الفراغ كأنه يستعيد مشهدًا من رماد الذاكرة :

لأنها أخطأت حين ظنّت أنّ الحبّ سينقذها من لعنتها. كانت تحبّه ، نعم، لكنّها أغوته أولًا لتنتصر ، فلما صدّقها، سقطت معه.

في اليوم التالي ، دخلت الأميرة وان شي جناح الإمبراطور، وقالت له بصوتٍ مملوءٍ بالحكمة والمرارة:

دع فو سان تبقى لترعى ابنتها ، فهي بنتك كما هي ابنتي . لقد حرمتني السماء الولد ، لكنها منحتني كرمًا أعظم ؛ أن أشاركك أبوتك دون أن أحمل الخطيئة في أحشائي .

ثم أضافت بعد صمتٍ طويل :

ولكن عدني، يا مولاي ، ألا تقترب من جناحها أبدًا ، إلا إذا كنت في صحبتي.

قال الإمبراطور وهو ينظر إلى الأرض كمن يوقّع على حكمه:

لا أعدك فقط ، بل أقسم ببوذا أن أفي بهذا الوعد ما حييت.

أطرق الكارجان رأسه وقال في ختام حديثه:

وهكذا يا بني، تحوّل الدير إلى لعنةٍ والقصر إلى معبدٍ للندم . لم تلد فو سان وليّ العهد ، بل أنثى حملت في ملامحها حزن الأمهات اللاتي خُنّ أقدارهن . كانت تلك الفتاة هي بداية السقوط البطيء لسلالةٍ عظيمة ، لأنّ الخطايا في القصور لا تموت ، بل تلبس ثياب الأطفال وتنمو معهم حتى تصير قدرًا جديدًا للصين.

سكت الكارجان طويلاً، ثم همس :

كل إمبراطورية تبدأ بامرأة... وتنتهي بها.

و صدق الكارجان في قوله .

اللعنة في جناح الإمبراطورة
مأساة القصر الدموي

على مدى شهرٍ كامل ، ظلّ الإمبراطور العاشق أسيرَ نارٍ لا تُطفأ ، تتأجّج في صدره كلّ ليلةٍ كأنها جمرٌ لا يخبو . كان يشتعل شوقًا إلى تلك المرأة الغامضة ، ربة الغواية ، التي سلبت لبه وأربكت سلطانه ، وجعلته يتأرجح بين رغبةٍ مُلتهبةٍ وعذاب الضمير.

لكن هل كانت فو سان ، تلك المرأة الخبيثة ذات الجمال الفاتن ، مكتوفة اليدين وهي ترى الإمبراطور يذوب شوقًا فيها ؟ أكانت لتقف ساكنة بعد أن نجحت في كل ما خططت له بدهاءٍ أنثويٍّ لا يرحم ؟ لا . كانت تتآمر في صمت ، تزرع الشر كما تُزرع البذور في الظلام . وكانت أداتها في تنفيذ مكائدها فتاةً لا تقل عنها دهاءً ودموية ، تلميذة إبليس الثانية ، وصديقتها الوفية "سيو في" التي كانت على استعداد لأن تلطّخ يديها بالدماء من أجل وعدٍ بالرفعة والمجد.

قالت سيو في وهي تحرض سيدتها ، وعيناها تلمعان كأفعى في ليلٍ ماكر :

آنسة فو ، إنها زوجته الإمبراطورة ، تلك التي تقف بينك وبينه ، تمنعه عنك وتحتل قلبه.

فأجابت فو سان بصوتٍ خفيضٍ كأنها تهمس بخطيئة:

أعرف يا سيو ، أعرف . ولكن إن لم أتحرك بسرعة فلن آمن أن تحرضه على إعادتي إلى الدير الذي جاء بي منه . بل قد تأمر باغتيالي ، وهي قادرة على ذلك.

قالت سيو بابتسامةٍ قاتلة :

إذا أمرتِ ، دسستُ لها السم.

لكن فو سان أطرقت لحظة ثم قالت بحذر:

لا يا سيو ، ليس الآن . هذا وقت التدبير المحكم لا الاندفاع. اسمعي... إنها مولعة بطفلتي الصغيرة ، وتزورنا بين الحين والآخر. ولكنها لا تأتي إلا بعد أن تُرسل خبرًا مسبقًا بقدومها . تأتي في موكبٍ من الخادمات والوصيفات ، ونحن نصطف لاستقبالها كالعبيد ، نمشي خلفها

في صمتٍ خانع ، ثم تدخل غرفة الطفلة لتداعبها ، ونحن لا نجرؤ حتى على الكلام.

قالت سيو في بمرارةٍ ساخرة :

وأنتِ ، أمُّ الطفلة ، لا تجرئين حتى على إرضاعها في حضرة الإمبراطورة ؟

فردّت فو سان وقد انعكس لهيب الغضب في عينيها:

سيكون حتف الإمبراطورة في هذه الزيارات المتكررة يا سيو.

سألتها الوصيفة وقد بدا الفضول ينهش قلبها :

كيف يا آنسة فو سان ؟

ابتسمت فو سان ابتسامةً باردة وقالت :

سأخبرك كيف ، إذا وعدتِ بمساعدتي .

أنا خادمتك المطيعة يا آنسة ، لكن... ما نصيبي إذا نجح المخطط؟

ضحكت فو سان بخبثٍ وقالت :

ألا يكفيك أن تصبحي أميرة من البيت الإمبراطوري ؟

لا ، أريد أن أتزوج وصيف الملك ، الفتى جو وونج.

سأحقق لك الأمرين معًا إن نفذتِ كل ما أطلبه منكِ بدقةٍ متناهية.

وفي قاعة التحقيق اللاحقة ، كان الكارجان العجوز يقف مطأطئ الرأس أمام المحكمة الملكية . سأله القاضي بصرامةٍ :

وأنت يا يدنا الكارجان ، كيف سكتَّ عن مؤامرات هذه الشابة الخبيثة ؟ كيف تركتها تخطط للتخلّص من الإمبراطورة الرقيقة ، التي اشتهرت بالرحمة ورعاية اليتامى حتى أطلق عليها الناس لقب " أم اليتامى " ؟

تنهد الرجل العجوز وقال بصوتٍ متهدّج:

لا أكذب عليك يا سيدي ، كنت أعلم في قرارة نفسي أنها تدبّر أمرًا خطيرًا ، لكني كنت مأخوذًا بجمالها . كانت تملك القدرة على الإقناع ، وكان مكرها أعمق مما تصورت . ثم هناك سرٌّ... لا يمكن أن أُخفيه بعد الآن.

قاطعه القاضي :

لا تقل لي أنك كنت طامعًا فيها ؟

خفض الرجل عينيه واعترف بمرارةٍ :

نعم، كنت أظنها تبادلني الشعور . لم تبخل عليّ بشيء، لقاء أن أغضّ الطرف عن جرائمها . وددتُ لو أنني أدركت باكرًا أن اللئيمة ستفتك بي حين تنتهي حاجتها إليّ . وها قد فعلت... كنت أول ضحاياها

يوم انتصرت على الإمبراطورة انتصارها السافل الدموي ، إذ أمرت بقطع عنقي في فناء القصر بعد أن اقتُلِع لساني حتى لا أنطق بسرّها.

سأله القاضي:

فكيف دبرت مقتل الإمبراطورة ؟

قال الكارجان :

لقد كانت الإمبراطورة تحب طفلة فو سان الصغيرة ، ابنة الإمبراطور منها . حبًّا لا حدود له ، لأنها كانت عقيمًا لا تستطيع الإنجاب . استغلت السفاحة الجميلة ذلك ، وجعلت من الطفلة فخًا قاتلًا.

في الليلة السابقة للجريمة ، استدعت فو سان وصيفتها سيو في ، وقالت لها بنبرةٍ حازمةٍ لا تحتمل الاعتراض:

لقد أرسلتُ إلى الإمبراطورة أن تأتي غدًا لزيارة ابنتي . عندما تأتي ، لن تجد أحدًا في استقبالها. سأصرف جميع الخدم والوصيفات ، ولن تبقى سوى أنتِ . ثم سننكر أننا علمنا بقدومها.

نظرت سيو إليها بعينين مرتجفتين وقالت :

لكن هذا خرقٌ للتقاليد يا سيدتي ، عقوبته الرجم .

أجابت فو سان ببرودٍ قاتل :

إذا سارت الخطة كما أريد، فالإمبراطورة هي التي ستُرجم، لا أنا ولا أنتِ.

وكيف ذلك ؟

اسمعي جيدًا ، ستدخل الإمبراطورة غرفة الطفلة وحدها. ستبقى معها ، كعادتها ، تداعبها ساعة أو ساعتين . أما أنتِ ، فاذهبي إلى الضابط الذي يحرس جناح الإمبراطورة ، صديقك الذي لا تطيقين فراقه . اقضي معه الوقت ، ودعي الجميع يراكما معًا

ولماذا ؟

لأنني أريدك أن تكوني شاهدة على أنك لم تكوني في الجناح وقت الحادثة. وعندما تسمعين الصراخ والعويل ، تصرخين بدورك وتقولين : " يا إلهي، ماذا حدث في جناح الآنسة فو ؟ " ثم تذهبان معًا للتحقق ، أمام الجميع.

صراخ ! عويل ! لمَ تتوقعين ذلك ؟

ستفهمين كل شيء في الوقت المناسب. المهم أن تلتزمي بدورك.

أطرقت سيو في، لكن قلبها كان يخفق بخوفٍ مبهمٍ . ومع ذلك ، طغى طموحها على خوفها . كانت تحلم أن تصبح زوجة وصيف الملك جو وونج ، وأن ترفعها سيدتها فو سان من خادمةٍ إلى أميرة.

قالت فو سان في النهاية بنبرةٍ حاسمةٍ :

إذا أتقنتِ دورك ، فسترين كل أحلامك تتحقق . سأستصدر مرسومًا إمبراطوريًا بمنحك لقب الإمارة ، وسيتزوجك وصيف الملك أمام البلاط كله.

خرجت سيو من الغرفة وقلبها مضطرب . لم تكن تدري أن هذه المؤامرة ستجرّ على القصر كله لعناتٍ لا تنتهي ، وأنها ستكون الشرارة التي تُشعل نار الحروب الخفية بين جناح الإمبراطور وجناح الإمبراطورة ، بين الحبّ والانتقام ، بين الرغبة والدم.

أما فو سان، فجلست وحدها تلك الليلة أمام مرآتها الذهبية ، تتأمل وجهها الذي كان يختزن الجمال والموت معًا ، وتهمس لنفسها في تيارٍ من الوعي المضطرب :

" لقد انتصرتِ يا فو... لكن على من ؟ على امرأةٍ أحبّت الطفلة التي من رحمك ؟ أم على نفسك التي فقدتِها منذ اللحظة التي بدأتِ فيها المؤامرة ؟ " .

ثم أغمضت عينيها، كأنها تخشى أن ترى انعكاس روحها في المرآة ، وتذكرت الإمبراطور الذي كان يذوب عشقًا فيها ، بينما هي تخطط لأن تغرس خنجرها في قلب من أحبها وأحب طفلتها.

وفي الصباح ، حين ارتفعت شمس باهتة فوق أسوار القصر، كان الدم قد سال في جناح الإمبراطورة ، واللعنة قد بدأت تكتب فصلها الجديد في تاريخ العشق الملطخ بالخيانة.

التاريخ لا يكذب ، و الشاعر الانسانية أصدق من التاريخ لأنها هى التي تصنع التاريخ بأفعال صاحبها ، بكل حركة يخطوها من الألف إلى الياء .

دموع الإمبراطورة وابتسامة فو سان
مأساة في قصر التنين

كالساعة الدقيقة دارت الخطة الجهنمية . في مساء غائم يلفّ القصر الإمبراطوري في سكون ثقيل ، جاءت الإمبراطورة في موعدها المحدّد ، تحفّ بها وصيفاتها المخلصات. لم تجد في استقبالها سوى الوصيفة سيو في ، تلك الفتاة التي كانت تبدو بريئة كحمامة ، تخفي تحت ملامحها الهادئة عقلاً ماكراً مروضًا على الخداع . أنكرت سيو في علمها بالزيارة ، وأظهرت دهشة مصطنعة ، ثم أدخلت الإمبراطورة إلى غرفة الطفلة الصغيرة ، وأغلقت الباب بهدوء ، بينما بقيت الوصيفات في الدهليز الطويل ، يتهامسن بقلق وخوف.

في تلك اللحظة، انطلقت سيو في بخفة الثعالب نحو جناح ضابط الحرس لتبلّغ بأنّ الإمبراطورة في زيارة لابنة فو سان ، وكأنها تؤدي واجبًا بريئًا . كل شيء كان محسوبًا في ذهنها ، فالأدوار قد وُزّعت بعناية : الإمبراطورة ستُترك وحدها مع الطفلة ، وسيو في ستُثبت حضورها في مكان آخر ساعة الجريمة ، لتبدو الصورة أمام الجميع كما لو أنّ السماء نفسها شهدت على " خيانة " الإمبراطورة.

في الغرفة ، جلست الإمبراطورة إلى جوار الرضيعة ، تمسح على شعرها الناعم وتداعبها بأغانٍ من تراتيل المعابد القديمة . كانت الطفلة تضحك ، وتقبض أصابعها الصغيرة على أطراف ثوب أمها بالتبني . لم تكن تعلم أنّ تلك الساعة ستكون آخر ما تنعم فيه بلمسة الحنان . بعد أن غادرت الإمبراطورة الغرفة واصطحبت وصيفاتها ، خيّم الصمت على المكان ، إلا من أنفاس الحرس البعيدين.

بعد ساعة أخرى ، انفتحت بوابة سرية في ظهر الجناح ، ودخلت منها فو سان بخطوات وئيدة ، يكسو وجهها قناع من الجمود . كانت تعرف أن اللحظة الحاسمة قد جاءت . اقتربت من مهد طفلتها ، نظرت

إلى وجهها الملائكي ، وتردّد في عينيها بريق متناقض من الحنان والجنون . ثم... أطبقت بيديها على عنق الرضيعة . لم تصدر الطفلة سوى أنين خافت انقطع سريعًا ، وسكنت روحها الطاهرة ، وكأنّ السماء حجبت النور عن ذلك القصر اللعين . نظرت فو سان إلى الجثة الصغيرة لحظة ، ثم أطلقت تنهيدة باردة ، ومسحت دمعة زائفة تسللت إلى خدها ، قبل أن تغادر الغرفة بنفس الطريق الذي جاءت منه.

خرجت إلى الليل البارد، وانسلت بين أشجار الخيزران حتى وصلت إلى قصرها ، حيث كانت وصيفاتها في انتظارها. وبعد ساعة ، عادت معهنّ وهي تضحك بصوت مرتفع ، تثرثر وتتمايل بخفة لتلفت أنظار الحرس إلى مرحها المصطنع . ثم صعدت إلى غرفة ابنتها ، تصرخ بصوت يقطر حبًّا وحنانًا مزيفًا :

» –لشدّ ما اشتقت إلى ابنتي العزيزة! سأغمرها بقبلات الحب الحانية، يا لبوذا، كم أحب هذه الصغيرة«!

تقدّمت بخطوات مسرحية، وفتحت الباب أمام وصيفاتها، ثم أطلقت صرخة مرعبة ملأت أروقة القصر:

» لقد قتلوها! قتلوا جوهرتي الغالية ، حبيبة مولاي الإمبراطور «!

وانهمرت دموعها الكاذبة كأمطار الصيف ، بينما ارتجف الحرس وهرع الجميع نحو الغرفة.

في تلك اللحظة، اكتملت المسرحية الدموية. كانت فو سان قد عضّت اليد التي أنقذتها من الموت في أحد أديرة الصين النائية ، اليد التي احتضنتها وأعادتها إلى القصر الإمبراطوري ، يد الإمبراطورة وانج شي . كانت وانج شي بالنسبة لها أكثر من خصم ، كانت ظلًّا يحجب عنها نور السيطرة الكاملة على قلب الإمبراطور جوات سوانج ، ذلك الفتى الضعيف الذي ورث العرش دون حكمة ولا إرادة من أبيه .

في اليوم التالي، انقلب القصر رأسًا على عقب . أمر الإمبراطور بالتحقيق في مصرع الطفلة . كان وجهه شاحبًا ، وعيناه زائغتين بين الحزن والارتباك ، بينما كانت فو سان تجلس بجانبه في مجلس التحقيق ، متخفية خلف حجاب من الأسى والبراءة الزائفة.

بدأ التحقيق بسؤال الوصيفات. تقدّمت سيو في ، تتظاهر بالخوف والخضوع ، وقالت بصوت مرتجف :

» أنا التي أدخلت جلالة الإمبراطورة إلى غرفة الطفلة... لكنها أمرتني بالانصراف ، فخرجت كما أمرتني «.

رفع الإمبراطور حاجبيه وقال:

» ولماذا لم تكونوا جميعًا في الجناح لاستقبال جلالتها ؟ ألم تحدد هي الموعد مسبقًا ؟«

أجابت سيو في وقد أعدّت كذبتها مسبقًا :

» جلالتها جاءت على غير موعد ، يا مولاي ، لم نكن مستعدين. أما الآنسة فو سان فقد كانت خارج القصر ، ولم تعد إلا بعد ساعة... و يا للأسى ، ما كنت لأذكر ما قالت لي الخادمات «!

تظاهر الإمبراطور بالدهشة :

» وما الذي قلنَه ؟«

خفضت سيو في رأسها وقالت بصوت متهدّج :

» قالت الخادمة إنها رأت الإمبراطورة تخرج من الغرفة في اضطراب شديد ، تنظر إلى يديها وتبكي ، وتردد : يا لبوذا ، ماذا فعلت بالمسكينة «!

توالت شهادات الزور ، حتى صارت الأكاذيب نسيجًا محكمًا يخنق الحقيقة. كانت الإمبراطورة تبكي وتنهار ، تصرخ بمرارة :

» بوذا يشهد أني بريئة ! إنها مؤامرة... مؤامرة دنيئة «!

لكن لا أحد كان يسمع صوت البراءة في حضرة الكذب الممنهج.

سأل أحد المستشارين الإمبراطور :

» مولاي، أترى في زوجتك قدرة على فعل هذا ؟ إنها الأم التي رعَت أطفال العائلة جميعًا «!

لكن جوات سوانج كان غارقًا في دوامة هواه . نظر إلى فو سان ، فوجد في عينيها بريقًا آمرًا لا يقاوم ، فقال ببرود :

» لقد أعمتها الغيرة من فو سان... قتلت الطفلة لأن قلبها لم يحتمل أن ترى من تشاركها عرشي تلد لي وريثة «.

شهقت الإمبراطورة ، وجثت عند قدميه تبكي بحرقة :

» مولاي ، لقد عشت معك ست سنوات لم تعرف فيها قلبي إلا رحيمًا عطوفًا . كنتُ من نصحك بأن تبقي فو سان مع طفلتها في القصر ! كيف أكون قاتلة ؟ «!

لكنه صرخ فيها :

» كفى! لولا وصية والدي الراحل لما أفلتِ من العقاب «.

في تلك اللحظة ، أدركت وانج شي أن الحقيقة قد دفنت إلى الأبد ، وأنّ العدالة في قصر التنين ليست إلا لعبة بيد النساء الماكرات والرجال الضعفاء . رفعت بصرها نحو سقف القاعة العالية ، حيث يطلّ وجه بوذا الذهبي، وقالت بصوت خافت كأنه نداء روح مكلومة :

» بوذا ، أنت العدل الغائب عن هذا القصر. احكم بيني وبين من ظلموني «.

وفي مكان بعيد ، في جناح فو سان، كانت تلك الأخيرة تضحك ضحكة باردة، تنعكس على المرايا كأنها صدى الشر نفسه ، تدرك أن دم الطفلة الذي لوّث يديها لم يكن سوى خطوة في طريق طويل نحو السلطة و المجد ، طريق معبّد بدموع الإمبراطورة وسقوط إمبراطورية كاملة في هاوية الغواية والخيانة.

خطة شيطانية جديدة

ازداد تعلقُ فو بالخدينة الخبيثة كما يزداد العطش للصحراء حين يزحف الغبارُ على الأفق . كانت ترتدي ثيابَ حدادٍ سوداءَ كأنّها تحملُ عزاءً ليس لطفلتها وحدها ، بل لعاصفةٍ بأكملها تُحاكُ في جنباتِ القصر . وصفتها وصيفاتها، وعلَّمنَها كيف تُخفيُ الابتسامةَ خلفَ طياتِ السواد ، وكيف تُلوّنُ العيونَ بدموعٍ مستعارةٍ تُظهرُها أمام الزائرِ عاشقةً أمينةً حزينةً ـــ تجسيدُ الألمِ الذيً يوقظُ عطفَ الإمبراطور.

لم يكد يومٌ يمرُّ دون أن تهمسَ فو، بصوتٍ رفيعٍ مُخادعٍ ، بجرائمِ الإمبراطورة :

" لقد سمعتُ بصوت الخادم ، رأيتُ ظلالَها في المدخل ، إنني متأكدةٌـــ"

وتستنفرُ القلوبَ بصوتٍ لينٍ ماكرٍ، تذكيرٌ دائمٌ بجريمةٍ لم تحدث ، أو حدثت على لسان حكايةٍ تُحاكُ في الليالي الخفية . كان هدفها واضحًا : أن يُهجرَ زوجُها الإمبراطورُ الزوجةَ البريئةَ ، أن يُطوَى اسمُها من دفاترِ القصر ، ثم تُعادُ فو إلى محلهَا القديم في قلبِ الملك.

ولكن فو سرعان ما أدركت أن هذا المسارَ لن يكفي . الإمبراطورُ ، رغم ما قيل عنه من غفلةٍ ، لم يكن أحمقَ السهولة ؛ كان يعودُ إلى زوجتهِ كما يعودُ الطائرُ إلى عشهِ من بعدِ رحيلِ العاصفة . هذا وعيٌ جعلها تُدبرُ مؤامرةً أعقدَ: أن تُلصقَ على الإمبراطورةِ تهمةَ السحرِ والاتصالِ بالأرواحِ السفلية ، أن تُشيعَ أنَّ قلبَها مهوى الشياطينِ الذين يسلِّطونَها على أحبائها.

في ركنٍ ضيقٍ من جناحِها ، تُهمسُ فو إلى وصيفتها سيو ، التي كانت شريكةَ كلِّ إثمٍ ومسرحيةٍ تُحاكُ في الظِلّ:

" سيو، إن فشلنا في المرةِ الأولى فلدينا الثانية. هذه المرة ستكونُ القاضية ".

نظرتْ سيو إليها بعينِ حذِرةٍ :

" آنسةُ فو ، كوني حريصة . أمراء وأميراتُ المملكة يتغامزون في حفلات القصر ، يتهامسونُ بأنكِ أنتِ التي أمرتِ الخدمَ بقتلِ طفلتكِ ".

ابتسمت فو ابتسامةً فيها ما يكفي من جمودٍ وخبثٍ:

" سأقطعُ ألسنةَ كل هؤلاء في الوقت المناسب . لعبتي القادمة ستمكنني تمامًا من إرادة الإمبراطور ".

سيو، بصوتٍ يرتعشُ قليلاً ، سألتْها:

" كيف ؟ "

" سأثبتُ لهُ أن الإمبراطورةَ ساحرةٌ شريرة . تتصل بالأرواحِ السفليةِ وبشياطينِ الجحيم ، وتسلطهم على أحبائها . أنا أولهُمْ ، وهو بعدي.

قالت فو وعيونها تشعُّ بوهجٍ خطيرٍ كالمصباحِ قبل انطفائه.

" سأدعي أن أشباحًا مجهولةً تقتحم مخدعي . سأرمي نفسي على الأرضِ أصرخُ تلو الآخر، كأنما تلبَّستني الشياطين . ثم ، حين يهرعُ الكهنةُ الإمبراطوريون بمباخرِهم وأورادِهم ، أشهدُ عليهم أن هناك قوةً خارجيةً تُسلبُ مني إرادتي ، وأن الإمبراطورةَ هي المسؤولة ".

سيو ، وقد حزمتْ شفتَيْها كمن يضعُ حبلَ نجاةٍ لمؤامرةٍ على شفا الهاوية ، قالت:

" آنسة فو ، وكيف يقتنعُ جلالتهُ بأن الإمبراطورةَ هي التي تسلِّطُ عليهم ؟ "

ألقت فو برأسها إلى الوراء ، وكأنها تحلُمُ مستقبلًا رسمتهُ بريشةٍ سوداء:

" إذا نجحت المرحلة الأولى — وستنجح، لا مراءَ — تليها الضربةُ القاضية. سأجعلُ الخدمَ يروونَ كيف رأوا الإمبراطورةَ في بهو القصر تتكلّمُ مع ظلٍّ لا يُرى ، وكيف مرَّتْ حولَ مهدِ الطفلةِ نظرةً لا تُغتفر . سأُحلِّقُ بذِكرِ الأساطيرِ المخيفةِ حولَ السحرِ ، وأجعلُ الكلامَ يخرجُ من فمِ الناسِ مثلَ دخانٍ لا يزول".

وخلال تلك الليالي، كان وعيُ فو يغوصُ في نفسهَا— تيارٌ داخليٌّ يهمسُ لها بمدى وحشةِ الخطةِ وعمقِ الخطيئة. كانت تسترقُ النظرَ إلى ظلِّها في المرآة، وتُحاورُه:

" ماذا لو أنكِ كذبتِ على قلبِ رجلٍ أحبَّ ؟ ماذا لو أن ضحكتكِ العاريةُ من الرحمةِ أصبحتُ خاتمةَ كلِّ شيء ؟"

ثم تُجيبُ نفسها بسرعةٍ ، أو تحاول أن تُقنِعها ، بصوتٍ بهِ همسُ منطقٍ باردٍ:

" السلطةُ لا تُمنحُ ، تُنتزع . الحبُ ضعفٌ إذا ظلَّ بلا مكانةٍ. إن الإمبراطورةَ ليست بريئةً ؛ إنما هي حجرٌ في حقلِ أحلامي ، وسأحرّكُ الريحَ لتصمدَ أخيرًا الريحُ التي أريد ".

هنا بدأ الجزءُ الفنيُّ من اللعبة : فو تُدرّبُ جسدَها على الارتعاشِ في أوقاتٍ محددة ، تُنقّحُ صرخاتِها لتبدو كتيارٍ خارجٍ من روحٍ مستباحةٍ ، تُدرّبُ أصواتَها لتتبدلَ بين الهمسِ والنداء . وصيفاتها يتقلّبنَ بين الحماسةِ والرهبةِ ، يهمسنَ لها بالتعليماتِ كما تعطي القائدةُ أوامرها لجنودٍ على وشكِ اقتحامِ حصنٍ.

وفي صباحٍ تبعثَرت فيه أوراقُ الرّيشِ في بهو القصر ، اجتمعَ مجموعةٌ من النبلاءِ والكهنةِ ، وربما بعضُ الأمراءِ الذين تحبُّهم اللعبة. تُحكى القصصُ دائمًا في الحلقات: إنّ الحكاية لا تُصبحُ حقيقةً إلا إذا ما شهدَ الناسُ عليها. فو ، بدت كمن تُحضرُ مشهداً مسرحياً ؛ كانت تتقنُ صمتَها قبلَ الصراخ ، كانت تبدو كقِداحةٍ تُحاكَى في الظلام.

وفي الهواءِ كان ثقلُ الفلسفةِ يعلو: ما قيمةُ الحقيقةِ بين جباهِ سلطاتٍ تُسعى للحفاظِ على موازينها ؟ هل يكونُ العدلُ هو أن يكشفَ الناسُ الخبثَ أم أن الحقيقةَ تظلُّ طريحةً في عيونِ من يملكُ كلمةَ الوضعِ ؟ فو تُدركُ أنَّ كلَّ فعلٍ يؤدي إلى سلسلةِ نتائجٍ لا تُحمدُ عقباها ؛ لكن العدمَ الذي يقطنها من الداخلِ — ذاك الإحساسُ بأنها لم تُخلَّقْ إلا لتكون في موقعِ السلطةِ — كان أقوى.

في الليلةِ الموعودة ، دخل الإمبراطورُ جناحها بعد عزفٍ خافتٍ من القيثاراتِ في الحفلِ القصري. كانت فو قد رتَّبتْ المسرحية بعناية ؛ إذ رنتِ الأجراسُ البعيدةُ ، واندفعَتْ الأصواتُ الصغيرةُ للخادماتِ ، ثم بدأتْ فو بالغناءِ — صوتٌ رخيمٌ ، أنينٌ جميلٌ كخيطٍ رفيعٍ يقطعُ الهواء . ترنَّحتْ فجأةً وكأنّها سقطت على الأرض ، تمددَتْ وهي تصرخُ:

" أراهم! إنهم يلتهمونني ! يسرقونُ روحي !"

وامتزجتِ الكلماتُ بصياحٍ كان قد درَّبته مسبقًا على أن يبدو حقيقيًا.

هرع الإمبراطورُ ، فوقفَ أمامَها يراقبُ، والعيونُ كلها عليه الآن. جاء الكهنةُ بحركاتٍ طقسيةٍ ، ومعهم مبخرةٌ تُفوحُ بروائحَ عتيقةٍ تُشعرُ من يختزن في قلبه اعترافًا بالضعف . ثم ، في ذروةِ الهذيانِ المدبَّر ، همستْ فو بصوتٍ غريبٍ ، يُشبهُ الصوتَ الذي يُزعمُ أنه يخرجُ من بينِ الشياطين:

" هي... هي تدعوني... تعلّمني... تأخذُهم مني."

الكهنةُ ترجَّلوا في كلماتٍ قديمةٍ ، والهمساتُ انتشرتْ بين الحاضرين :

" سحرٌ... تأثيرٌ خارق... الإمبراطورة "...

ومن بين الحشودِ ، علتْ همساتٌ خافتةٌ ، ثم تردَّدتِ التهمة كأنها شخصٌ يجرُّ ذيله من قاعةٍ إلى أخرى . وعيُ فو، في تلك اللحظةِ ، كان يتلوى بين الانتصارِ والندمِ ، كمن يحملُ قلبًا مقسومًا بين رضاءٍ قادمٍ من السلطةِ وبقعةٍ سوداءٍ لا تُمحى في الذاكرةِ. تساءلتْ برهةً:

" هل هذه القوةُ تستحقُ أن تتبقَّى على حسابِ براءةِ آخرين؟"

ثم قطعتْ ذلك السؤالَ بشدةٍ:

" البراءةُ ـــ كلمةٌ لا تكسبُ ممالكَ ".

القِصّةُ هنا لا تقفُ عند نتيجةٍ واحدة ؛ لأنها في نهايةِ المطافِ ، عن الإنسانِ الذي يُحاولُ أن يشتري موقعَهُ من خلالَ روحِ الآخرين . هل سيسقطُ الإمبراطورُ في فخِّ الاتهامِ ؟ هل ستُدانُ الإمبراطورةُ ؟ هل ستذبحُ الحقيقةُ على مذبحِ الطقوسِ والألقاب ؟ الأجوبةُ ليست مؤكدةً بعد ، ولكن ما تأكَّدَ هو أنَّ القصرَ قد تغيّرَ ؛ أنَّ رائحةَ الخبثِ أصبحتْ جزءًا من هواءِه ، وأنَّ لعبةً بُدِّئت قد تُفضي إلى نهايةٍ أو إلى ولادةِ فصلٍ جديد.

في الخفاءِ ، بينما يُعيدُ خادمٌ ترتيبَ وسائدِ الإمبراطور ، تنامَ سيو وقد علتْ على شفتيها ابتسامةٌ طفيفةٌ لا تنمُ عن السرورِ بقدرِ ما تنمُ عن تطمينِها لحليفتِها في الطغيانِ . فو تلمَّستْ صدرَها ، كأنها تُمسكُ بمفاتيحِ منزلٍ كبيرٍ على وشكِ الفتح . وفي داخلها ، ما زالَ شيءٌ يقهقهُ خافتا: انتصارٌ مُرتقب أم ندامةٌ محتومة ؟ الزمنُ وحدَهُ سيحكم.

حين باعَ العاشقُ روحه

ونفذت اللئيمة خطتها بإتقانٍ شيطانيٍّ لا مثيل له . كانت تلك الليلة من الليالي التي ستُكتب في سجل الدسائس الإمبراطورية بحروفٍ من نار. في مخدعها المذهَّب ، حيث تتدلّى المصابيح الكريستالية وتعكس على الجدران أضواءً لاهثةً كأنها أنفاسُ الغواية ، جلست فو سان ترين إلى جوار الإمبراطور جوات سونج. سَقته من نبيذها الممزوج بعبق جسدها وابتسامتها ، حتى غاب عن رشده وتلاشت في رأسه الحدود بين الحبّ واللعنة ، بين المتعة والهلاك.

وما إن بلغ السكرُ ذروته ، حتى انتفضت فجأة كمن أصابتها صاعقة ، وبدأت تتلوّى على الأرض كحيةٍ مسمومة ، تصرخ وتبكي وتشهق وتزعم أن شبحًا مخيفًا يقف على باب مخدعها ، يصرخ بأصواتٍ جهنميةٍ ويأمر الأبالسة بأن يمزقوها إربًا ويسلبوا روحها . ارتعد الإمبراطور ، وقفز الخدم والكهنة إلى الغرفة ، وانهمرت الصرخات ، بينما كانت هي تتابع تمثيلها الرهيب بعينٍ تترقب أثره في وجه الإمبراطور المرتبك.

دخل كبير الكهنة، وقد خيّل إليه المالُ المنهوب من خزائن الإمبراطور أنه بركةٌ سماوية ، فطمس في قلبه كل صوتٍ للضمير ، وقال وهو يضع يده على صدره بتصنّع الورع:

أجل يا صاحب الجلالة، إن روحًا شريرة تسكن هذا القصر ، وهي التي تطارد الآنسة فو سان ترين .

رفع الإمبراطور حاجبيه في ذهول :

روح شريرة ؟ من أين جاءت ؟

فأجابه الكاهن الطامع في جمالها وقد انحنى بانحناءةٍ خبيثة: إنها روح امرأةٍ حاقدةٍ يا مولاي ، من نساء القصر ، تكنّ الآنسة فو كرهًا شيطانيًّا لا مثيل له . لعلها تقيم بيننا ، بل ربما تبيت في هذا القصر نفسه.

سرت الكلمة كالسُّمّ في روح الإمبراطور، فانعقدت الشبهة في صدره نحو زوجته الإمبراطورة وانج شي، تلك المرأة التي كانت ذات

يومٍ نبعَ السكينة في حياته . غير أنّ قلبه تغيّر ، تلوّث بالريبة ، وانقلب الحُبُّ نفورًا صامتًا . لم يعد يحدّثها إلا قليلًا ، ولم يدخل مخدعها إلا بأمرٍ من أمه العجوز. كان يرى فيها وجهًا باردًا متعاليًا ، بينما كانت هي تحمل في قلبها كل الحزن الصامت لامرأةٍ فقدت مكانها في قلب رجلها دون ذنب.

وفي الليل ، حين خلا القصر إلى صمته ، التقت فو سان بمساعدتها سيو في في ركنٍ مظلم من جناح الخدم ، وقالت لها بنبرةٍ مشبعةٍ بالظفر:

سيو في ، لقد نجحت المرحلة الأولى. غدًا ستقع الضربة الساحقة على رأس تلك الإمبراطورة البائسة . هل أعددتِ الدمية ؟

أجل ، يا سيدتي ، دمية من الشمع على هيئة رجل ، وفي صدرها مسمار أسود كما أمرتِ.

وهل رآك أحد ؟

كلا، الجميع كانوا منشغلين بالحفل الساهر ، حين تسللت إلى مخدع الإمبراطور ووضعتها تحت فراشه.

ضحكت فو سان ضحكةً منخفضةً كهمس الأفاعي وقالت:

غدًا، حين يطلع الصباح، سيتكفّل الخوف بالباقي.

وفي الصباح الباكر ، صاحت خادمة المخدع وهي ترفع الغطاء عن الفراش الإمبراطوري :

يا لبوذا العظيم ! الشيطان في المخدع !

تجمّع الحرس والكهنة ، وإذا بهم يرون دميةً من الشمع تماثل وجه الإمبراطور ، وفي صدرها مسمار أسود مغروسٌ بعمق . ساد الهلع أرجاء القصر ، وتعالت الأصوات ، وصار الكل يهمس باسم فو سان والإمبراطورة وانج شي في وقتٍ واحد.

أمر الإمبراطور بعقد المجلس الإمبراطوري الأعلى ، وجلس محاطًا بأمراء البيت الحاكم وكبار رجال الدولة . كان وجهه شاحبًا ، عيناه جمرتان من الشك . قال رئيس المجلس الإمبراطوري بهدوءٍ محسوب:

مولانا صاحب الجلالة يريد إصدار قرارٍ بتطليق جلالة الإمبراطورة وانج شي، بدعوى تآمرها مع الأرواح الشريرة ، ولكننا نعترض يا مولاي ، لأن القانون الذي أصدره والدكم العظيم تايت سانج قد حرّم الطلاق على جميع رعاياه، فكيف يليق بجلالتكم أن تخالفوا سنة الإمبراطورية؟

صاح الإمبراطور غاضبًا :

ولكن هناك قانون أقدم يقضي بإعدام كل من يعتدي على من يجلس على العرش ! أليس هذا اعتداءً ؟

ردّ الرئيس بصوتٍ مرتجفٍ:

لا دليل يا مولاي ، لا شيء يثبت أن جلالة الإمبراطورة وضعت تلك الدمية . ربما كانت مؤامرةً دُبرت للإيقاع بها.

فقال الإمبراطور في حنقٍ:

وهل في القصر من يجرؤ على إيذائي غيرها ؟

فأجابه الرئيس بحكمةٍ مترددة:

يا صاحب الجلالة ، لنصل إلى الحقيقة ، نطالب بسلطاتٍ تحقيقيةٍ تشمل الجميع ، رجالًا ونساءً ، دون استثناء.

لكن الكلمة الأخيرة كانت للغواية ، لا للعدالة. رفض الإمبراطور الطلب ، فقد كانت فو سان قد أحكمت قبضتها على عقله . وبعد أيامٍ قليلة ، صدر أمرٌ بنفي أعضاء هيئة التحقيق إلى اليابان ، بتهمة الخيانة ، بينهم المارشال ووجي سن ، والمستشار سوي لانج ، والأمير شار سوت ، ابن عم الإمبراطور . جميعهم دفعوا حياتهم وحياة أسرهم ثمنًا لمعارضتهم

أما الإمبراطورة المسكينة ، فقد ألقي بها في سجنٍ رهيب ، في جبٍّ ضيقٍ مظلم لا يسع جسدها الهزيل ، ومعها ثلاثٌ من بنات أسرتها الشابات . كنّ يصرخن في الليل كطيورٍ جريحة ، لا يسمعهن أحد إلا جدران الصخر.

وفي ظلمة الليل، دخلت زبانيات فو سان بأمرٍ منها، تحمل كل واحدةٍ منهن أداةً من أدوات الجحيم. قالت زعيمتهن بصوتٍ مبحوحٍ:

الأوامر واضحة، مزّقوها إربًا ، ولا تُبقين منها عظمًا سليمًا ، ثم ألقين الجسد في الحفرة، ودعن الذئاب تكمل الوليمة.

نفّذن الأمر بوحشيةٍ تفوق وصف البشر . وفي الصباح ، لم يُعثر في الحفرة على سوى بقايا ممزقة ، حتى الجمجمة نهشتها الذئاب. ماتت الإمبراطورة موتًا يفوق في رعبه أساطير العذاب.

حين بلغ الخبر الإمبراطور ، لم يبدُ عليه الحزن ، بل جلس في مجلسه المذهب يحتسي الخمر ، وعلى شفتيه ابتسامةٌ باردة . كان أخيرًا حرًّا في زعمه من امرأةٍ كان يراها عبئًا على قلبه . وبعد أيامٍ قليلة ، أعلن القصر الإمبراطوري عن إقامة حفلٍ عظيم لزفاف جلالة الإمبراطور جوات سونج إلى محظيته فو سان ترين ، التي غدت بين ليلةٍ وضحاها " سيدة الصين الأولى ."

لكن خلف الأبواب المذهّبة ، كانت الأرواح التي ادعت فو سان أنها تراها أول مرة ، قد بدأت تظهر حقًا في أحلام الإمبراطور كانت الإمبراطورة وانج شي تزوره في المنام كل ليلةٍ بثوبٍ أبيض ملطخٍ بالدماء ، تقول له بصوتٍ تخرج منه ريحُ الجبال البعيدة :

يا جوات ، لقد بعتَ روحك للظلام، وستعرف يومًا أن من يزرع الظلم لا يحصد إلا الجنون.

ومنذ تلك الليلة، لم يعرف الإمبراطور نومًا، ولا راحةً ، ولا عقلًا سليمًا . أما فو سان، فكانت تستيقظ أحيانًا على صراخه المدوّي ، وهي تبتسم في الظلّ... ابتسامة امرأةٍ تعرف أن الشرّ، وإن ملك العرش يومًا، فإن لعنته لا تنام أبدًا.

الدم على العرش الذهبي

في سطوةٍ لا تعرف الرحمة ، وبعينين تلتمعان كبريق الخنجر ، قالت في مجلس الحكم ، أمام دهشة الحاضرين ووجومهم :

لن أضع على رأسي التاج الذي زُيِّن يومًا رأس الخاطئة القاتلة وانغ شِي ! .

ساد الصمتُ أرجاء القاعة الكبرى ، وارتجف الهواء بين الأعمدة المزخرفة كأنّ الأرواح القديمة نفسها شهقت من جرأتها . حاول رئيس المجلس الإمبراطوري أن يستعيد توازنه ، فانحنى بخضوع وقال بصوتٍ متلعثم:

مولاتي، إنّ هذا التاج من أنفس ما خلفه التراث الإمبراطوري ، فيه من الماسات والأحجار الكريمة ما لا يُقدَّر بثمن ، وهو رمز لعظمة الصين وعهد أباطرتها عبر القرون.

رفعت حاجبها في كبرياءٍ ساخر ، وقالت ببرودٍ لاذع :

ماساتهم وأحجارهم سأنتزعها لأزيّن بها مداسي. لقد دنّس هذا التاج رأس خائنةٍ ، وأنا لا أقبل أن يلامس جبهتي شيءٌ لطّخته يدُ القتلة!

ارتجف صوت رئيس المجلس :

مولاتي ، إنّ جلالة الإمبراطورة الأم لن ترضى عن ذلك ، فهي ترى في هذا التاج شرف السلالة ، وقد زين رأسها هي من قبل!

ابتسمت ابتسامةً تفيضُ استعلاءً وقالت :

لم يعد في الصين رأسٌ سوى رأسي أنا . أريد تاجًا جديدًا ، فيه من الماسات ضعف ما في ذاك التاج الملوَّث . أما من يذكر لي الإمبراطورة الأم ، فليتذكّر أن زمنها قد ولّى إلى غير رجعة.

بلغ الخبر الملكة الأم التي كانت آخر ما تبقى من سلالة المجد القديم . دخلت على ولدها الإمبراطور غاضبة ، وعيناها تقدحان شررًا من الغضب الممزوج بالخذلان. قالت :

أهكذا تسلّم الصين لامرأةٍ بلا أصلٍ ولا نسب ؟ أترضى أن تُهان عظمة العرش تحت قدميها ؟!

خفض الإمبراطور رأسه في استكانةٍ مهينة ، وقال بصوتٍ متهدجٍ كطفلٍ مذعور :

أماه... لم تعد في الصين اليوم إمبراطورةٌ سواها. فو سان تسيرين هي سيدة القصر والبلاد ، ومن لا يروق له أمرها فليختَر الدير منفًى لنفسه إلى آخر أيامه.

ذُهلت الأم العجوز من كلام ولدها ، وارتعشت يداها ، ثم تمتمت كمن يلفظه القدر إلى الظلال :

ليست هذه الصين التي عرفناها.. إنّها وادٍ من الدم ينتظر طوفانه .

وفي اليوم التالي، دخلت الأم الديرَ راغمة ، تودّع الدنيا في صمتٍ كسير ، بينما كانت فو سان تسيرين تُتوَّج إمبراطورةً في احتفالٍ فخمٍ لم تعرف مثله قصور التنين من قبل.

حين رفع الكاهن الأكبر الصَّحفةَ الذهبية المطعَّمة بالماسات ـــ رمز الأباطرة المقدَّس ـــ ليقدّمها للعريس ، انتزعتها فو سان من يده انتزاعًا ، ورفعتها عاليًا أمام الجموع ، قائلة بصوتٍ اخترق القاعة كالسيف :

أنا الآن إمبراطورة الصين ، أيها الكاهن ! لا أحد فوقي بعد اليوم!

تجمدت الوجوه من حولها ، حتى الإمبراطور نفسه لم يجرؤ على أن يرمش بعينيه ، كأنّ صولجانها الجديد قد جمد الدم في عروقه.

وهكذا بدأ عهد فو سان تسيرين ، عهدُ الحديد والدم.

كانت البداية رأسي أنا ، إذ انتزعت زبانيتها لساني كي لا أنطق بما أعرف من جرائمها قبل أن يهوى السيف على عنقي . كنت من أقرب خادماتها ، أعرف كيف تخفي الوحش وراء ابتسامةٍ مصقولةٍ من حرير ، وكيف تضحك وهي تأمر بالقتل كما لو كانت تتحدث عن ترتيب الزهور.

في أول أمرٍ تصدره نيابةً عن الإمبراطور المستكين ـــ خانغ جوات سونغ - ألغت نظام «بنات الحظايا» نهائيًا، وأمرت بأن تُقتل كلُّ عذراءٍ تُعثر عليها على مسافةٍ تقل عن عشرة أميال من بكين . كان الدم يسيل في الأزقة ، والهواء يعبق برائحة الموت ، بينما كانت هي تجلس على عرشها الذهبي تتأمل السيوف اللامعة كأنها مرايا لنفسها.

لم يكن أحدٌ يجرؤ على النظر في عينيها . كانت تنظر إلى الناس كما تنظر الإلهة إلى عبيدها ، وكأنّها تزن أرواحهم بميزانٍ من جليد . حتى الإمبراطور ، زوجها ، صار ظلًا يمشي خلفها . لم يعد يُصدر أمرًا ولا يرفع رأسه ، حتى ظنّ بعضُ الوزراء أنّه ميتٌ لم يُدفن بعد.

كانت الصين تغلي تحت حكمها . قصورٌ الأمراء تُهدم، وسلالاتٌ تُمحى ، وأسماءٌ تُحرق في السجلات الإمبراطورية كأنها لم تكن . ومع كل فجرٍ جديد ، كان رأسٌ آخر يسقط في الساحات.

لكنّ غرورها لم يعرف الشبع . فقد أرادت أن تُغلق الصين على نفسها ، أن تنزل عليها ستارًا من حديدٍ لا ينفذ منه ضوءُ العالم . أمرت بإغلاق الموانئ ، ومنعت الرحّالة والتجار من دخول البلاد أو مغادرتها ، وقالت في أحد مجالسها :

لن نسمح لهواءٍ أجنبيٍّ أن يلوث روح التنين. ستنطوي الصين على ذاتها ، كما تطوي الأفعى جسدها لتستعد للّسع.

كانت تلك الفترة الثانية من عهدها ، أكثر غموضًا ورعبًا من الأولى. في ظل الستار الحديدي ، صارت القصور سجونًا فاخرةً ، والوزراء أشباحًا تمشي بأمرها ، والشعب يختبئ في الظلال خوفًا من العيون التي لا تنام.

ومع مرور السنين ، بدأت الشيخوخة تزحف على وجه فو سان . صارت المرآة تُظهر لها تجاعيدها كطعَناتٍ في كبريائها ، وبدأت تسمع الهمس في أروقة القصر عن « اللعنة التي تقترب ». كانت تضحك، لكنها لا تنام إلا بين أضواءٍ مشتعلةٍ وخدمٍ يرتجفون عند أقدامها.

وفي يومٍ من أيام الشتاء القارس، حين أطبقت الثلوج على جدران المدينة الإمبراطورية ، جاءها الهول العظيم الذي حذرته الملكة الأم من قبل. فقد ثار أحدُ أبناء البيت الإمبراطوري ممن نُفوا إلى الشمال ، وجاء على رأس جيشٍ من الجنود الجائعين الذين أرهقهم حكمها.

كانت تلك بداية النهاية . بين ألسنة اللهب وصيحات الانتقام ، جلست فو سان في مخدعها المذهب ، تحدق في المرايا الكثيرة التي كانت تزين جدران غرفتها ، فرأت فيها كل الوجوه التي أزهقتها ، وكل العيون التي انطفأت بأمرها . تضحك أولًا ، ثم تبكي ، ثم تصمت.

وهكذا انتهى عهد فو سان تسيرين ، الإمبراطورة التي بدأت ملكها بالدم ، وأنهته بالهول.

أما الصين، فقد نهضت من رمادها كما ينهض التنين الجريح - حاملةً في ذاكرتها اسمًا محفورًا بالدم والنار : **فو سان، الإمبراطورة السفاحة**

عرش الدم
حكاية فو سان ، إمبراطورة الصين الغامضة

في إحدى الليالي، جلست فو سان وحدها أمام المرآة ذاتها التي شهدت تتويجها ، وقد انطفأت في عينيها كل شرارة. مدت يدها إلى التاج الجديد الذي صُنِع لها منذ عقود، ووضعته على رأسها للمرة الأخيرة ، ثم قالت بصوتٍ خافتٍ كأنها تعترف:

لقد أخذتُ كل شيءٍ من الجميع ، ولم آخذ نفسي.

عند الفجر ، وجدوها ميتةً على عرشها ، يلفها ثوبها الأحمر، وقد سالت دمعةٌ واحدة على خدها الجامد.

هكذا انتهى عهد الإمبراطورة السفّاحة **فو سان تسيرتين**، التي بدأت حياتها بثورةٍ على تاجٍ قديم ، وانتهت سجينةً لتاجٍ صنعته بيديها من دماء الآخرين . كان التاريخ يطوي صفحتها ، لكن ظلالها ظلت معلقةً في ذاكرة الصين، كأنها تقول:

" من يملك العالم ولا يملك قلبه ، يعيش خالداً في الخوف ، لا في المجد ".

كانت تلك الكلمات آخر ما دوّنه الإمبراطور العجوز في يومياته قبل أن تنطفئ أنفاسه تحت أفياء القصر البارد. بعد أن ملك القصور والمدن والذهب والجنود ، أدرك متأخراً أن العظمة بلا قلب ليست سوى سجن من العظمة الزائفة . كان يسمع صدى ضحكاته القديمة يتردد في الممرات ، فيتساءل: كم مرة ضحكت وأنا أجهل معنى الفرح؟

في الليالي الأخيرة من حكمه ، حين خفت ضوء المصابيح وهدأت خطى الحراس، كان يجلس على عرشه الحجري كتمثال من الحنين ، يحدّق في الفراغ الذي تركه غياب من أحبهم . لم يكن يخاف الموت بقدر ما يخاف الصمت الذي يعقبه ؛ ذلك الصمت الذي يذكّره بأن كل قراراته العظيمة كانت بلا روح ، وكل انتصاراته وُلدت من رحم القسوة.

رأى في نومه مملكته تحترق ببطء ، لا بنيران الأعداء ، بل ببرودة القلوب التي تعلّمت منه أن تحكم دون أن تُحب ، أن تظفر دون أن ترحم. عندها فهم أن المجد ليس في عدد الأتباع ولا في سطوة الأوامر، بل في لحظة صدق مع النفس ، في دمعة حب ، في يدٍ تمتد بالعفو لا بالسيف.

وفي الصباح، حين دخل الخدم إلى القاعة الكبرى ، وجدوه هادئاً، كأنه استراح أخيراً من عبء الملك . وعلى مكتبه المفتوح كانت جملته الأخيرة محفورة بالحبر الغامق ، ترتجف بين الحقيقة والندم:

"من يملك العالم ولا يملك قلبه ، يعيش خالداً في الخوف ، لا في المجد".

وهكذا انتهت القصة لا بانتصارٍ ولا بهزيمة، بل بإدراكٍ مؤلم أن من يفقد إنسانيته في سبيل السلطان، يفقد كل شيء حتى نفسه.